الأخلاق وحقوق الإنسان في الإسلام

تأليف الدكتور
سيد فرج عبد الحليم

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بكلية الأصول الدين - جامعة الأزهر - القاهرة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

١٩٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

لا شك أن البشرية تعيش فى عالمنا المعاصر أزهى عصور تقدمها الصناعى وازدهارها المادى وانتصارها العلمى فى شتى ميادين العلم والمعرفة ، ازدهارا شامخا فى مجالات الصناعة والاختراع ، وثورة معلوماتية لم يشهد العالم لها مثيل كما بلغت الحضارة المادية فى هذه الفترة حدا لم يسبق له مثيل من تسخير قوى الطبيعة للإنسان حتى أصبح العالم الآن وكأنه قرية صغيرة ، وقد ضمنت هذه الحضارة لإنسان هذا العصر الرفاهية المادية .

وكان من المنتظر أن تعيش الإنسانية والحالة هذه - فى أزهى عصور السعادة والرفاهية والطمأنينية والاستقرار والعيش فى أمان وسلام إلا أن الأمر على النقيض من ذلك تماما فبالرغم مما وصلت إليه البشرية من التقدم العلمى والمادى ، فإنها تعيش أحلك فترات حياتها ظلمة وكآبة وأشد فترات تاريخها شقاء وتعاسة فضلا عما تعانيه الإنسانية من حروب ودمار وضياع حقوق الإنسان وقيمته ونشر الفساد والدعوة إلى التحلل من كل القيم والمبادئ .

وإذا بحثنا عن سبب ذلك الشقاء وتلك التعاسة وجدنا الإجابة تنحصر فى بعد الإنسان عن الأخلاق والقيم والمبادئ السامية كنتيجة طبيعية لبعد الإنسان عن الدين وانحلاله عن عرى الإيمان فانعدام القيم الأخلاقية هو أساس اختلال موازين المجتمع ونشر الشرور والآثام .

فبالرغم مما وصل إليه التقدم العلمى فى شتى الميادين فى هذا العصر .

فإننا نجد أن الذين تقدموا فى الحياة المادية بهذه الصورة يتردون فى مجالات القيم والفضائل والأخلاق والدين ، فهم يزدادون إسرافا فى الرذائل والموبقات ، وجرأة عجيبة على اقتراف الآثام وافتتانا فى الشهوات الحيوانية ورفض هداية السماء المتمثلة فيما تدعو إليه الأديان من قيم روحية وأخلاقية حتى أصبحت بعض الأقلام البشرية تفضل الإباحية المطلقة التى لا يضبطها أى وازع من دين أو ضمير أو أخلاق أو مبادئ أو عقل ، بل ازدادت البشرية انحدار فأصبحت تعيش عيشة العرى فى ميادين الدنيا علما وحضارة بسبب بعدها عن هداية الدين ، فقد صاحب هذا التقدم والازدهار المادى بعدا عن الدين والأخلاق وانحلال عرى الإيمان .

فما تعانيه البشرية فى هذا العصر من شقاء وضياع حقوق الإنسان وليس هذا فحسب بل محاربة الدين الحق الذى يرتفع بقيمة الإنسان عن عيشة البهيمية والحياة الهمجية الساذجة مما دفع كثير من علماء الغرب ومفكريهم إلى الدعوى للجوء إلى هداية الدين وأنه هو العلاج لأمراض وأسقام وعلل الحضارة المادية التى صيرت الإنسان إلى آلة لا قيمة لها ولا تقدير ولا احترام ولا وزن .

والحق أنه لا علاج لأسقام الحضارة المادية إلا باتباع الدين الحق القائم على الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، والتمسك بالقيم والأخلاق الفاضلة والإيمان باليوم الأخر الذى يوفى فيه كل إنسان جزاءه .

ومن ثم فإن الأديان السماوية والمصلحون الاجتماعيون يدعون ويشجعون على حسن الخلق لكى ينضبط سلوك الإنسان فلا يبغى أحد على أحد ، ولكى يسعد الإنسان بتعاون ومساعدة أخيه الإنسان ، فينعم المجتمع بالأمن والسلام ، فالأخلاق الحسنة هى ضوابط تماسك وتعايش أفراد المجتمع الإنسانى الكريم ، تدعو إليها الأديان وتسهر على سيادتها الدول حفاظا على الأمن والاستقرار .

إن ديننا الإسلامى الحنيف قد اهتم اهتماما بالغا بتهذيب النفوس البشرية وبمكارم الأخلاق الإنسانية والتخلق بالأخلاق السامية لتعلو إلى أوج السعادة وتتصف بالمثل العليا ، وتكون لها الحياة الأفضل لأن الإنسان أفضل مخلوق على وجه الأرض ، فإذا اتصف بالمزايا الحميدة ، يشعر بسموه الذاتى عن بقية المخلوقات التى خلقها الله تعالى لقضاء حوائج الإنسان ومنافعه الدنيوية .

وما من شك فى أن التعاليم الدينية هى خير وسيلة لإبعاد البشرية عن الرزائل ، بل إنها ترفعها إلى المستوى الذى يكون السبب فى سعادتها ، وما من شك أيضا أن التعاليم السماوية هى نور وهدى لأنها منزلة من الله عز وجل على رسوله الأعظم النبى محمد ﷺ .

نرى من الواضح أن الأمة الإسلامية ، حينما انطلقت من الحجاز مهد النبوة نحو العالم ، حاملة معها مهد التعاليم النبوية ، والرسالة المقدسة ، قائلة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قد ضربت المثل الأعلى للعالم أجمع ، بأن الإسلام دين المحبة والمساواة والحرية وحفظ الحقوق ، وأن المسلمين الذين توجهوا نحو الأمم حاملين رسالة الإسلام ، قد تخلقوا بالأخلاق السامية فجعلوا تلك الأمم تنظر إليه نظرة الإجلال والإكبار ، لما فى تلك الرسالة من معانى العظمة والإجلال والإكبار .

إن الشرائع السماوية كلها نادت باتباع الفضيلة وترك الرذيلة، وخصوصا الإسلام نادى الإنسان بأن يتحلى بالأخلاق الجميلة ، من الصدق ، والوفاء بالوعد ، وحفظ العهد والأمانة والعفو عند المقدرة والبر بالوالدين وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقضاء حوائج المحتاجين وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلومين ، والمساواة فى الحقوق والعدل والعدالة وحب الخير والابتعاد عن الشر وترك الربا والتسامح والحلم والتحابب والتآلف وطلب العلم لأن العلم نور وهداية .

كل هذه الأمور حرصت عليها الشرائع السماوية وحرضت الإنسان على إتباعها ونادت بها على لسان الرسل .

فلا ريب أن الأخلاق تشكل ركنا أساسيا فى بناء الشريعة وتساهم مساهمة فعالة فى تكوين الشخصية الإسلامية وتحدد نمط السلوك الإنسانى ، ولما كان للأخلاق هذا الدور الخطير والفعال لذلك فإن شريعة الإسلام هى أول شريعة قد قررت المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان فى كل صورة وأوسع نطاق ، وأن الأمم الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده كانت أسبق الأمم فى السير عليها ، وأن الديمقراطيات الحديثة جميعها لا تزال متخلفة فى هذا السبيل تخلفا كبيرا عن النظام الإسلامى .

"ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" [1] ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [2] .

إن ديننا الإسلامى الحنيف هو الدين الذى تكفل بإنقاذ البشرية والخروج بها من محنتها الراهنة التى سلبتها كل معانى الإنسانية والحياة الكريمة .

ولما كانت قضية الأخلاق هى أساس الصلاح والإصلاح فى حياة الفرد والمجتمع بل من أهم البواعث التى يتوقف عليها إقامة مجتمع فاضل أساسه الوقوف عند احترام حقوق الغير الذى يعد أصلا من أصول الحياة الفاضلة كان هذا البحث الموجز عن الأخلاق وحقوق الإنسان فى الإسلام وأثرها فى حياة الفرد والمجتمع .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د . سيد فرج عبد الحليم

---

(١) انظر الأخلاق الإسلامية للشيخ على فضل الله ٥ – ٧ ، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت – بتصرف .

(٢) انظر حقوق الإنسان فى الإسلام د . على عبد الواحد وافى ٣١ ط نهضة مصر .

المبحث الأول
مفهوم ومكانة الأخلاق فى الإسلام

مقدمـــــة :

من المعلوم أن مكارم الأخلاق أسمى ما دعت إليها الأديـــان السماوية ولقد أحدث الإسلام إبان ظهوره في القرن السابع الميـلادى انقلابا شاملا فى المبادئ والمفاهيم الأخلاقية وذلك منـــذ أن نشأت دولته العربية الإسلامية الكبرى فقد كان لظهوره على مسرح التـاريخ العالمى أثر كبير فى نشر النور فى العالم كله وتغيير قيـم الأخـلاق والأشياء ، فارتفعت قيم وانخفضت أخرى ، ولقد استطاع العرب فـى أقل من قرن من الزمان فتح العالم المحيط بهم وتأسيس دولة شاسـعة تشتمل على مختلف الأجناس والثقافات والمذاهب الدينية والفلسـفية ، وقد تولى العرب تنظيم دولتهم المترامية الأطراف بحســب مبـادئ دينهم السامى وقيمه العليا النبيلة من الحرية والعدل والمساواة والحب والتسامح والعلم والعمل واحترام حرية الأديان وكرامة الإنسان [١] .

فالأخلاق في الإسلام هى عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنسانى التى يحددها الوحى لتنظيم حياة الإنسان على نحـو يحقق الغاية من وجوده فى هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم .

ويتميز هذا النظام الخلقى فى الإسلام بطابعين :

أما الأول : فهو طابع إلهى أى أنه مراد الله سبحانه وتعالى .

وأما الثانى : فهو طابع إنسانى أى أن للإنسان مجهودا ودخلا في تحديد هذا النظام من الناحية العملية فهذا النظام من الأخلاق هـو نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة أى أنه طراز السلوك وطريقـة التعامل مع النفس والله والمجتمع .

وهو نظام يتكامل فيه الجانب النظرى مع الجانب العملى منـه وهو ليس جزءا من نظام الإسلام العام بل هو جوهر الإسلام ولبـه وروحه السارية فى جميع نواحيه إذ النظام الإســلامي علـى وجـه العموم مبنى على فلسفته الخلقية فى الأساس بل إن الأخـــلاق هى جوهر الرسالات السماوية على الإطلاق والهدف من كل الرســالات هدف أخلاقى بل إن الدين نفسه هو حسن الخلق بل أن الإسلام حسن

---

(١) القيم فى الإسلام بين الذاتية والموضوعية للدكتور : صلاح الدين بسيونى رسلان ص ١٢٩ .

الخلق ، فروح الإسلام روح أخلاقية هدفه فى الحياة تحقيـــق غايـة أخلاقية [١] .

وإذا كان الأمر كذلك فمـــا هـــو مفـــهوم الأخـــلاق فـــى اللغـــة والاصطلاح ؟

أولا : مفهوم كلمة أخلاق

تدل كلمة الأخلاق على المنظومة العامة للقواعد المســلكية ، التى تتقيد بها جماعة بشرية (أخلاق دينيـــة ، وأخـــلاق سياســية ، وتجارية الخ) ، عموما تقال الأخلاق على المسالك الدينية القويمـــة ، أما الأخلاق (Ethique) فهى " النظرية العقلية للخير والشر " [٢] .

والتعبير الإسلامى عن Ethics [٣] (علم الأخلاق – أخلاق)، فلقد تبنى الإسلام كثيرا من الفضائل التى كانت سائدة قبل الإسلام فى الجاهلية ، وأعطاها قدسية دينية وأخلاقية ، ومع روحانية العقيدة أخذ علماء الدين فى التأكيد على المسئولية الفردية والأخلاقيات .

ولا يجوز الخلط بين الأخلاق الاجتماعيـــة عامـــة والدينيـــة خاصة، وبين الفكروية أو الأيديولوجيا ، لأن الفكروية هى "منظومـــة معتقدات أو قيم مستعملة فى الصراع السياسى بغية التأثير فى سـلوك الجماهير وتوجيهها فى اتجاه دون سواء للحصـــول علـــى إجمـــاع ولتوطيد شرعية السلطة [٤] .

وهذا يخالف الفكر الأخلاقى فى الإسلامى الذى يتمـــيز بأنـــه "فكر دينى يستمد مصادره الأساسية من القـــرآن الكريـــم ، والســـنة النبوية وسيرة السلف الصالح الصحابة والتابعين وبعض الشـخصيات المتميزة فى تاريخ الإسلام كما أنه يظل دائما فى إطار الفكرة الدينيـة يستلهمها ويسترشد بها [٥] .

---

(١) الأخلاق فى الإسلام بين النظرية والتطبيق الدكتور : محفوظ على عزام ص ١٤.

(٢) أنظر الأخلاق الإسلامية وأساسها – عبد الرحمن حسن الميدان ١٠/١ ط دار القلم – دمشق .

(٣) Ethics علم الأخلاق ، أخلاق .

(٤) معجم المصطلحات الدينية د. خليل أحمد خليل (١٩٩٥) ط١ بيروت دار الفكـــر اللبانى .

(٥) المرجع السابق .

ثانيا : معنى الخلق لغة واصطلاحا

إن مفهوم كلمة أخلاق فى اللغة جمع خلق بضمتين كعنق وأعناق وتطلق فى اللغة على عدة معانى هى الطبع والسجية والعادة والمروءة والدين [١] .

والفرق بين الطبع والسجية والعادة أن :

١ – الطبع هو الصفة الراسخة التى جبل عليها الإنسان دون إرادة منه .

٢ – والسجية ودائرتها واسعة تشمل المطبوع والمكتسب الذى أصبح عادة معا .

٣ – والعادة هى الصفة الراسخة المكتسبة بالإرادة عن طريق المران والتدريب .

أما تعريف الخلق اصطلاحا :

فقد اختلف علماء الأخلاق والمفكرين حول تعريف الخلق وتضارب الفهوم ولم يتفقوا على تعريف موحد لهذا العلم وإنما تنوعت تعريفاتهم تبعا لاختلاف مذاهبهم الأخلاقية ونحن نذكر طرفا منها ثم نذكر التعريف المختار .

١ – عرفه الجرجانى بأنه "ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة ويسر من غير تقدم فكر ورؤية وتكليف [٢] .

ومعنى هذا التعريف أن :

- الخلق صفة نفسية وليس عملا من الأعمال وإن كان العمل الاختيارى مظهرها الخارجى .
- غير الراسخ من صفات النفس لا يكون خلقا كغضب الحليم .
- الأخلاق ملكات ولابد من أسس الخلق : الغريزة ، الوراثة ، البيئية ، التربية ، العادة .
- الراسخ بتكلف كالبخيل إذا حاول الكرم .
- ما تكون نسبته إلى الفعل والترك على السواء كالقدرة .

---

(١) أنظر القاموس المحيط – لمجد الدين الفيروزابادى ٢٢٩/٣ ب القاف ط دار المأمون ١٣٥٧ ، لسان العرب لابن منظور ٨٦/١ ط دار الصادر .

(٢) التعريفات للجرجانى – خلق ، كشاف التهانوى – خلق ط الحلبى .

٢ – عرف بعض العلماء الأخلاق بأنها " عادة الإرادة" ويوضح الدكتور يوسف موسى هذا التعريف بقوله "تغلب ميل من الميول على الإنسان باستمرار حتى يصير عادة" وقيل الخلق هو قوة راسخة فى الإرادة تنزع إلى اختيار ما هو خير وصلاح ، إن كان الخلق حميدا أو إلى اختيار ما هو شر وفساد إن كان الخلق ذميما .

٣ – وعرفه ابن مسكويه فى كتابه " تهذيب الأخلاق " بقوله : الخلق حال النفس داعية لها إلى أفعالها من دون فكر وروية وهذه الحال أما طبيعية من أصل المزاج كالغضب من دون أسباب والفزع من ضعيف الأصوات والحزن على أتفه الأشياء وإما مستفادة بالعادة والتدرب حتى صارت ملكه وخلقا كشجاعة البدو وبأسهم المستفادين من تفردهم عن المجتمع ومساكنتهم الوحوش والضوارى [١] .

٤ – وعرفه الإمام الغزالى بقوله " الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية وإنما قلنا هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال مثلا على الندور لحاجة عارضة لا يقال : خلقه السخاء واشترطنا صدورها من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب مثلا لا يقال : خلقه السخاء والحلم ثم قال بعد ذلك وليس الخلق عبارة عن الفعل إذ رب امرئ خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع أخر وقد يكون خلقه البخل وهو يبذل رياء ونفاقا [٢] ، وليس الخلق القوة لأن القوة إلى الإعطاء والإمساك واحدة ولأن كل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس الخلق المعرفة لأنها تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد وقال المحدثون من الفرنجة " الخلق صفة نفسية مكنونة راسخة تصدر عنها الأفعال دون قصد وتكلف وهى إما جبلية فى نفس صاحبها وهى الناشئة عن الغرائز كمن يولد وخلقه الكرم والبأس أو مستفادة من تدريب الإرادة فى عمل ما وهى الناشئة عن العادة كمن اعتاد التحلم حتى صار حليما والبذل حتى أمسى كريما أو مكتسبة مما يحيط بالمرء كالمشاهدة الطبيعية والمجتمع فإن صدرت الأفعال من امرئ قصدا وتكلفا فليس ذا خلق وإنما هو متخلق كأن يفعل المكرمات وابتغاء

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ٣١ ط صبح .

(٢) إحياء علوم الدين – الغزالى ص ٦٩ .

الشهوة وحسن الأحدوثة أو يتصنع الحلم والتواضع لينال الحمد والثناء [١] .

ثالثا : السلوك وعلاقته بالخلق

حقيقة الخلق أنه وصف لصورة الإنسان الباطنية هو صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة فالخلق منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم .

وليس كل الصفات المستقرة في النفس من قبيل الأخلاق بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخلق والذى يفصل الأخلاق ويميزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها فى السلوك قابلة للحمد أو للذم وبذلك يتميز الخلق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية . إن الغريزة المعتدلة ذات آثار فى السلوك، إلا أن هذه الآثار ليس مما يحمد أو يذم عليه [٢] .

فالعمل الأخلاقى هو العمل الذى يطابق القيم وهذه القيم تقررها أساسا طبيعتنا البيولوجية واستعدادنا السيكولوجى ، والإنسان حيوان يعيش باستمرار في صحبة غيره من بنى الإنسان ويكاد يعتمد فى سنواته الأولى على الآخرين اعتمادا كليا لذلك كانت لديه ميول طبيعية كثيرة تؤهله للحياة الاجتماعية المتناسقة ولحماية الصغير والضعيف وكان قدر كبير من السلوك الأخلاقى غريزيا وتلقائيا ، وإذا نظرنا إلى العمل الأخلاقى فى فرديته لا إلى التنظيم الدائم الذى يكون الطابع الأخلاقى ، فالعمل الخلقى يتميز بأنه عمل إرادى أى أنه ينطوى على عملية تبنى الذات لهذا العمل [٣] .

رابعا : الفرق بين الخلق والسلوك

وعلى ذلك نستطيع أن نقيس مستوى الخلق النفسى عن طريق قياس آثاره فى سلوك الإنسان : فالصفة الخلقية المستقرة فى النفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة ، وإذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة ، وعلى قدر قيمة الخلق فى النفس تكون بحسب العادة – آثارها فى السلوك ، إلا أن توجد أسباب معوقة أو صوارف صادرة عن ظهور آثار الخلق فى السلوك .

(١) الخلق الكامل – محمد المولى الجزء ١ ص ٢١٤ .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى – دار القلم دمشق الجزء الأول ص ١٠ ، ١١ .

(٣) مقدمة فى علم الأخلاق أ.د. محمود زقزوق ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويجب الإشارة هنا إلى التفرقة بين الخلق والسلوك ، وهو أن السلوك ليس كله من آثار خلق النفس ، فمن السلوك ما هو استجابة إلى غريزة من غرائز النفس أو الجسم الفطرية ، ومنه ما هو استجابة إرادية لترجيح فكرى ، ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية ، ومنه ما هو طاعة للتكاليف والأوامر الربانية أو غير الربانية ، ومنه ما هو من قبيل العادات التى تتأصل فى السلوك ومنه ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية ، إلى جانب ما هو أثر من آثار خلق فى النفس محمودا كان أو مذموما إذ ليست كالسلوك من أثر خلق فى النفس [١] .

والخلق نوعان :

أ – **خلق حسن** : وهو الأدب والفضيلة وينتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلا وشرعا .

ب – **خلق سيئ** : وهو سوء الأدب والرزيلة وينتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلا وشرعا .

مفهوم الأخلاق الإسلامية :

وللأخلاق فى الإسلام مفهوم خاص عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنسانى التى يحددها الوحى لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده فى هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم .

وقد وردت كلمة خلق بضم الخاء واللام في القرآن الكريم مرتين الأولى فى قوله تعالى **(وإنك لعلى خلق عظيم)** [٢] ، قال ابن عباس ﷺ لعلى دين عظيم ولا دين أحب إلى ولا أرضى عندى منه وهو دين الإسلام فقد فسره ابن عباس بالدين كما فسره بالسجية . والثانية فى قوله تعالى **(إن هذا خلق الأولين)** [٣] .

فالأولى وردت في مقام المدح ، والثانية فى وصف ما درج عليه الأولون ، كما أن الأولى جاءت معيارا لما ينبغى أن يكون ، والثانية أتت وصفا لما هو كائن [٤] .

(١) الأخلاق فى الإسلام – د. محفوظ عزام ص ١١ ، ١٧ .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٣٧ .

(٤) تأملات فى فلسفة الأخلاق د. منصور رجب ٣٠٤ ط الثالثة .

فذلك هو الخلق المذموم الذى أهلك عاد الأولى الذى حذرنا القرآن الكريم منه فى الآية الثانية حيث يقول **(إن هذا إلا خلق الأولين)** [١] والقصة تقول **(كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)** ﷺ ، وبين أن هذا الإهلاك سببه أو من أسبابه "الإسراف والظلم " بناء على ذلك فالأخلاق فى القرآن الكريم معيار لما ينبغى أن يكون وليست وصفا لما هو كائن وجمودا على هذا الكائن إلا إذا كان تيسيرا لمبادئ الأخلاق وضوابط السلوك كما جاء فى القرآن الكريم . والقانون الأخلاقى فى القرآن الكريم لم يدع صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالنشاط الإنسانى إلا وقد رسم لها منهجا للسلوك تفصيلا حينا وإجمالا حينا أخر ، فنظم القرآن الكريم علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى ، ونظم علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببنى جنسه بل تخطى ذلك إلى علاقة الإنسانية بالكون [٢] .

وعلى ذلك فالأخلاق بمعنى الدين عبارة عن نظام من العمل غايته تحقيق الحياة الطيبة ونمط من السلوك مع النفس والغير من حيث ما ينبغى أن يكون عليه هذا السلوك ، كما أنها ليست جزءا من الدين فحسب بل ثمرته وروحه لأن الدين فى مضمونه عبارة عن الواجبات التى يلتزم بها الإنسان نحو الله ونحو نفسه وغيره من المخلوقات وما ينبغى أن يكون لا يؤخذ إلا من الوحى فقد جاءنا من الله رب العالمين لا من أحد من الناس أجمعين [٣] .

فالأخلاق تتمثل فى النظام والآداب والمبادئ المنظمة لسلوك الإنسان مع النفس ومع الغير بتربية ما ينبغى أن يكون عليه السلوك فالأخلاق الإسلامية هو علم يبحث فى الأحكام والمعايير والمبادئ

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٣ : ١٣٩ .

(٢) أنظر دراسات فى العقيد الإسلامية والأخلاق نخبة من أساتذة العقيدة والفلسفة بأصول الدين بالقاهرة ١٩٨١م .

(٣) دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق – لجنة من قسم العقيدة والفلسفة ٢٣٧ ط أولى ١٩٩٩ .

التى عن طريقها يوصف السلوك الإنسانى بأنه فضيلة فتقتنى وأنه رذيلة فيتخلى عنها حتى تزكوا النفس الإنسانية وذلك على أساس من الوحى الذى جاء به الرسول ﷺ [١] .

فهذا العلم بمفهومه الإسلامى يدور حول تنظيم سلوك الإنسان مع نفسه ومع الله ومع الناس وينبه الإنسان إلى الخير ليسعى إليه ويحرص عليه وإلى الشر ليبتعد عنه ويتجنبه ﷻ .

فحسن الخلق إذن مطلب شرعى دعا إليه الإسلام لإسعاد بنى الإنسان وللحفاظ على كرامتهم ولقد جعل القرآن الكريم حسن الخلق من أهداف استخلاف الإنسان فى الأرض قال تعالى **(الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)** [٢] ، فمهمة المسلم المستخلف فى الأرض هى العمل على سيادة الحق والعدل وتشجيع حسن الخلق ومجابهة السيئة حتى لا يكون فتنة ، وتكون الحاكمية لله اللطيف بعباده ، لذا يحاول الطامعون استغلال الشعوب الضعيفة عن طريق إفساد أخلاق مجتمعاتها لكى يتمكنوا من السيطرة عليها واستغلال خيراتها .

خامسا : مكانة الأخلاق فى الإسلام

إن مفهوم الأخلاق فى التصور الإسلامى والذى يقوم على مصادر المعرفة الإسلامية وهى : القرآن والسنة والمصادر التشريعية الأخرى ، يتضح منها : اتساع دائرة الأخلاق وشمولها ويبرز هذا الشمول فى ميدان الأخلاق والفضائل فالأخلاق الإسلامية ليست هى التى تعرف عند بعض الناس بالأخلاق الدينية التى تتمثل فى أداء الشعائر التعبدية واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ونحو ذلك لا غير .

إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها وكافة مجالاتها ، إن الأخلاق فى الإسلام لم تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية روحية أو جسمية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو عاطفية ، فردية أو اجتماعية، إلا ورسمت لها المنهج الأمثل للسلوك الرفيع "لأن الإسلام يقرر أن الله خلق الخلق ولم يتركهم يتدبرون أنفسهم كما يشاءون ولم يترك لذواتهم أن تقرر الفضائل والرذائل ، ولم يدع لهم اختيار القوانين

---

(١) الأخلاق فى الإسلام د . محفوظ على عزام ١٩ .

(٢) سورة الحج الآية ٤١ .

والشرائع حسبما يتراء لهم [١] بل إن الإسلام قام منهجا متكاملا يشمل جوانب الحياة المختلفة " .

فالإسلام يرتكز على محاور ثلاثة هى : العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق ، والأخلاق فى الإسلام لها مكانة بالغة الأهمية فهى الروح التى تسرى كل التشريعات من عبادات وعادات ومعاملات ونظم وآداب ، وهى الأصل الثابت فى كل أحكامه وأوامره ونواهيه ، سواء منها ما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع أو بالحكم أو بالعلاقات الدولية :-

١ – رسالة الإسلام فى جملتها ما جاءت إلا لتحقيق مكارم الأخلاق المتضمنة فى شرع الله .

٢ – سوى النبى ﷺ بين مفهوم الخلق الحسن وبين معنى الدين فقد سئل النبى ﷺ عن الدين فقال " حسن الخلق" [٢] .

٣ – والخلق الحسن يعادل التقوى فى ميزان المؤمن يوم القيامة لحديث " ما من شئ اثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن [٣] ، وحسن الخلق شرط للفوز بالجنة ففى الحديث الشريف الذى أخرجه مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " ، ومما يدل على مكانة الأخلاق فى الإسلام أن القرآن الكريم امتدح النبى ﷺ فى قوله تعالى **(وإنك لعلى خلق عظيم)** [٤] .

إن الإسلام وسط فى الأخلاق بين غلاة المثاليين الذى تخيلوا الإنسان ملاكا ، أو شبه ملاك فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له ، وبين الغلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان ، فالإنسان فى الإسلام مخلوق مركب فيه العقل وفيه الشهوة ، وقد هدى النجدين فيه استعداد للتقوى وفيه استعداد للفجور ، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى قال تعالى **(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)** [٥] .

---

(١) الإسلام فى نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى ٤٦ منشورات دار مكتبة الحياة .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة د. شلتوت ص ٤٦٤ .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) القلم آية ٤ .

(٥) سورة الشمس الآيات ٧ : ١٠ .

والمثل البشرى الأعلى فى تطبيق هذه المنحة الربانية هم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إذ تتولاهم العناية الربانية وحدها دون تدخل البشر ، فليس من قبيل العبثية أن يشق إبراهيم طريقه فى البحث عن الحقيقة وحيدا مخالفا لأبيه وقومه حتى اهتدى إليها بفضل الله ورجع إلى قومه وأبيه محاجا وهاديا ، وموسى كذلك وقد نشأ بعيدا عن رعاية الوالدين وعنايتهما ، وكذلك محمد ﷺ لم يكن من قبيل المصادفة أن يولد يتيما بل كان ذلك تقدير العزيز العليم لتتولاه عناية الله وحدها لقوله تعالى **(ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى** ﷻ) [١] كما جاء فى الحديث "أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال : خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين" أخرجه السمعانى [٢] .

فليست أخلاقهم وأفكارهم انعكاسا أو صدى أو نتيجة تطوير حدث فى المجتمعات التى بعثوا فيها وأرشدوها ، بل كانت أخلاقهم حدثا جديدا ومنهجا صارفا يدخل المجتمع من خارجه وبهذا كان القرآن الكريم يقرع أسماع المشركين من العرب وغيرهم لقوله تعالى **(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**ﷻ) [٣] .

وكانوا يؤكدون أنهم مظهر إنسانى يتجسد فيه المنهج الربانى باصطفاء الله عز وجل وعصمته لهم بعد النبوة من التردى فى حمأة الخطأ وإن صدر منهم فلن يقروا عليه بل كانوا دائما يهدون إلى أقوم السبل وأشرف الأعمال ويربطون الناس بالفكرة وليس بالشخص **(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﷻ) [٤] .

سابعا : غاية الأخلاق

غاية الأخلاق هى السعادة التى تظل الفرد وتذلل آلامه وهذه السعادة لا نجدها إلا فى النظام الأخلاقى الإسلامى وفى هذه الحالة

---

(١) سورة الضحى الآيات ٦ : ٨ .

(٢) مكارم الأخلاق للإمام الطبرانى تحقيق د. فاروق حمادة ط الثالثة .

(٣) سورة الجمعة الآيات ٢ : ٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٤٤ ، والمصدر السابق .

تكون سعادة محققة لا أوهاما ملفقة وسعادة مائلة لا أطيافا زائلة وسعادة تجعل الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة وهى الجنة الكبيرة التى ينعمون فيها بما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر [١] .

فمتى جبل الإنسان على الفضائل يتجنب الشر وممارسة أفعال الخير حصلت له "السعادة" التى لا يمكن ان تبنى على أساس من المادة أو الهوى وإنما تبنى السعادة عنده على أساس عقلى أو نفسى يشعر المرء منه بالضى والانسجام التام بين رغباته وبين الطبيعة الحقة للإنسان ، وتدأب النفس بالرضى فى طلب هذه السعادة التى قد يصيبها الإنسان عن طريق المصادفة ولكن الحكماء حقا هم الذين يحصلون على السعادة باستخدام ذكائهم وتحقيق إرادتهم الخيرة .

إن السعادة ليست الجمال ولا القوة ولا الثراء ولا المجد ولا شيئا من الأشياء التى تشبهها وإنما هى المعرفة الصحيحة التى تدفعه إلى اقتناء الفضائل واجتناب الرذائل وإلى تحقيق السعادة لنفسه بالعمل على أن تكون رغباته مطابقة للطبيعة الإنسانية وما زودت به من ملكات فكرية وطاقات عقلية وقيم روحية [٢] .

اختلف المفكرون اختلافا كبيرا فى تحديد الغاية من الأفعال الخلقية وذلك نظرا إلى تباين الطبائع البشرية فى التفكير والمزاج والإدراك والسلوك والشخصية حيث رأى بعضهم أن الغاية هى اللذة الحسية والبعض رأى أنها السعادة وغيرهم رأوا أن التطور والكمال هما الغاية الحقيقية من الأفعال الخلقية بينما يرى فريق أن الغاية من الأفعال الخلقية إنما هى المنفعة والبعض رأى أن الطبيعة هى الغاية .

ضرورة مكارم الأخلاق للإنسان :

لا شك أن الأخلاق ضرورة حضارية وإنسانية للفرد سواء كان بدويا أو حضاريا لأن الإصلاح والتربية إنما يبدأن أولا بالفرد فهو اللبنة الأساسية التى يتكون منها المجتمع وكيفما يكون الفرد يكون المجتمع على شاكلته ونموذجه فمثلا العبادات التى ظاهرها علاقة العبد بربه معناها تربية الضمير الأخلاقى والاجتماعى الذى يجعل كل الأفراد يعيشون معا منسجمين بقوة روحية تحكم مشاعرهم وإرادتهم وتوجه عقولهم وتؤلف بين نوازعهم وتجرد أواصر التعاون والتكافل

---

(١) الأخلاق فى الإسلام بين النظرية والتطبيق د. محفوظ على عزام ٨٧ .

(٢) العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع د. محمد بيصار ص ٢٦٥ ط ١٩٧٣ .

بينهم وهذا التكافل المؤسس على الدين الذى يترسخ فى أعماق النفس أجدى وأكثر نفعا للمجتمع من أن يكون نابعا من قوانين وضعية مفروضة بالحديد والنار [١] ، فأى مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة ، ولو فرضنا احتمالا أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط من غير أن يكون وراء ذلك غرض اسمى فإنه لابد لسلامة هذا المجتمع من خلقى الثقة والأمانة على أقل التقادير ، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها مجتمع من المجتمعات ومتى فقدت الأخلاق التى هى الوسيط الذى لابد منه من الانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم إلى الدمار ، هل من الممكن أن تتخيل مجتمعا من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف سيكون هذا المجتمع ؟ كيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق ؟

كيف يكون التعايش بين الناس فى أمن واستقرار وكيف يكون التعاون بينهم فى العمل ضمن بيئة مشتركة لولا فضيلة الأمانة ؟ .. وكيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخى والتعاون والمحبة والإيثار ؟ .. كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشجاعة فى رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتى هى أحسن ؟ .. بل كيف يكون إنسان مؤهل لارتقاء مراتب الكمال الإنسانى إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه ، صارفة له عن كل عطاء وتضحية وإيثار ؟ لقد دلت التجربات الإنسانية والأحداث التاريخية أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها فى سلم الأخلاق الفاضلة ومتناسب معه وأن انهيار القوى المعنوية لها ملازم لانهيار أخلاقها ومتناسب معه فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردى دائما صاعدين وهابطين ، وذلك لأن الأخلاق الفاضلة فى أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التى تعتد بها الروابط الاجتماعية ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت فى الأفراد ولم تجد الروابط الاجتماعية مكانا تنعقد عليه ، وانهيار كل خلق من مكارم الأخلاق يقابله دائما انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية ، وبانهيارها جميعا

---

(١) الفرد والمجتمع فى الإسلام – عبد الوهاب بوحديبه ومحمد الدواليبى من مطبوعات اليونسكو .

تنهار جميع المعاقد الخلقية فى الأفراد وبذلك تنقطع جميع الروابط الاجتماعية ويمسى المجتمع مفككا منحلا [١] .

وإذا كانت الأخلاق ضرورية فى نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهى فى نظر الإسلام أكثر ضرورة وأهمية ، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، فهو يعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم **(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا)** [٢] ، **(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)** [٣] بل أن الإسلام يخضع الأعمال العلمية للمبادئ الأخلاقية سواء كان ذلك فى مجال البحث أو فى مجال النشر لتوصيله للناس .

لقد اهتم الإسلام بالأخلاق لأن الأخلاق أمر لابد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحيتين المادية والمعنوية ، فالإنسان دائما بحاجة ماسة إلى نظام خلقى يحقق للإنسان حاجته الاجتماعية ويقف أمام ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه إلى استخدام قواه فى مجالات يعود نفعها على نفسه وعلى غيره بالخير .

إن الإسلام يدرك تمام الإدراك ماذا يحدث لو أهملت المبادئ الأخلاقية فى المجتمع وساد فيه الخيانة والغش والكذب والسرقة وسفك الدماء والتعدى على الحرمات والحقوق والفسق بكل أنواعه وتلاشى المعانى الإنسانية فى علاقات الناس فلا محبة ولا مودة ولا نزاهة ولا تعاون ولا تراحم ولا إخلاص .

أنه بلا شك سيكون مجتمعا لا يمكن أن تدوم فيه الحياة ، حيث سيكون جحيما لا يطاق وسيتحول الناس إلى وحوش ضارية وسيشقون شقاء ليس بعده شقاء لأن الإنسان بطبعه محتاج إلى الغير وبطبعه ينزع إلى التسلط والتجبر والتكبر والأنانية والانتقام ، فإذا نزع إلى ذلك أهلك الحرث والنسل **(وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)** [٤] .

فما أرسل الله رسله ولا أنزل كتبه إلا ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض فإذا ظهرت إمارات الحق وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبد الرحمن الميدان ٣٣ ، ٣٧ ط ١٩٨٧ دار القلم.

(٢) سورة يونس الآية ١٢ .

(٣) سورة هود الآية ١١٧ .

(٤) سورة البقرة ٢٠٥ ، وانظر الأخلاق فى الإسلام د. محفوظ على عزام ٨٨ .

وأماراته فى نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه وأدل وأظهر بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصودة إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها والطرق وأسباب ووسائل لا تراد لذاتها وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد ولكن الله نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها [١] .

إن سياسة خلق مثل "العدالة" فى حياة المجتمع سوف يكون له آثاره العظيمة إذ سيؤدى إلى سيادة الأمن واستقراره والمحبة والمودة والنشاط العلمى والفكرى الأمر الذى يؤدى بدوره إلى ازدهار الحياة وتدينها .

أما إذا كان الأمر بالعكس والعياذ بالله – وانعدمت العدالة فسوف يؤدى هذا بالضرورة إلى انتشار الرعب والحقد والاضطراب والتناحر وقلة الإنتاج وفى هذا يقول الماوردى فى القاعدة الثالثة من القواعد التى تطلع بها الدنيا "وأما القاعدة الثالثة فهى عدل شامل يدعو إلى الألفة ويحث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معها النسل ويأمن به السلطان " .. وليس شيئ أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور .

" وإذا كان العدل هو الحق" فإن مجاوزة الحق هى الظلم والجور .. وإذا وقع الظلم فى علاقة الإنسان بعقيدة الإلوهية كان كفرا أو شركا أو نفاقا **(إن الشرك لظلم عظيم)** [٢] .

وإذا وقع هذا التجاوز فى علاقة الإنسان بأخيه سمى ظلما .. **(إنما السبيل على الذين يظلمون الناس)** [٣] وكذلك تكون تسميته عندما يكون التجاوز للحق واقعا من الإنسان فى حق نفسه وذاته .. **(فمنهم ظالم لنفسه)** [٤] ، وإذا كان الظلم مفسدة لشئون الدين والدنيا فإنه ظلمات يوم القيامة ، كما قال الصادق المصدوق ﷺ .

فمن قبح الظلم وكونه مصدر الفوضى والسوء والفساد أن نجد القرآن الكريم قد عزز حكم العقل بذلك فأمر الناس بالعدل ونهاهم عن

---

(١) أعلام الموقعين للإمام بن القيم ٤ /٣٧٣ ط بيروت ١٩٧٣ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٣ .

(٣) سورة الشورى الآية ٤٢ .

(٤) سورة فاطر الآية ٣٢ .

الظلم واستعمل لذلك مختلف الأساليب كالترغيب والترهيب والتنفير والحث عليه .

لذلك كان العدل من أجل القيم الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام لأنها مصدر الخير ووقاية من الذلل والفجور والفسق والعدوان [١] .

إن تلاشى وضياع العدالة وانتشار الظلم فى أى مجتمع يؤديان إلى فساد الحياة وخراب العمران كما يرى ابن خلدون حيث يقول فى الفصل الذى جعل عنوانه "فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران"، "أعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غاياتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب ... والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إذ ما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب كسدت أسواق العمران وانقبضت الأحوال وأبذعو (تفرق) الناس فى الآفاق .. فى طلب الرزق .. فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان .. ومن أشد الظلمات أعظمها فى فساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق وبذلك أن الأعمال من قبيل المتولات .. وأعظم من ذلك فى الظلم وإفساد العمران والدولة والتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان علة وجه الغصب والإكراه فى الشراء والبيع .. ويؤول ذلك إلى تلاشى الدولة وفساد عمران المدينة وبطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به .. وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس فى أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يمضى إلى الخلل والفساد دفعة وتنتفض الدولة سريعا بما ينشأ عنه الهرج المفضى إلى الانتفاض " [٢] .

بالأخلاق يتحقق الصدق بالخصلة الأخلاقية التى (تكفل استقرار المجتمع وتضمن الثقة بين الأفراد ولذلك اعتبر أساسا من أسس الفضائل التى تبنى عليها المجتمعات وجعل عنوانا لرقى الأمم).

وما فقدت هذه الصفة إلا حل محلها عدم الثقة وفقدان التعلون فالصدق من ضرورات المجتمع وينبغى أن ينال حظا عظيما من العناية فى الأسرة والمدرسة لأنه يحصل منه الخير الكثير فيه ترد الحقوق وبه يحصل الناس على الثقة فيما بينهم ولهذا دعا الله سبحانه

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان د . محمد عمارة ٦٥/٥٥ .

(٢) أنظر المصدر السابق .

وتعالى المؤمنين للتخلق به فقال **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)** [١] وقوله : **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا)** [٢] .. فالصدق من ضروريات المجتمع وهو كما نرى لم يغفله القرآن بل دعا إليه كما دعا إلى كل فضيلة ترقى بالمجموعة البشرية .

فالأخلاق ضرورية لأنها تعمل على دوام الحياة الاجتماعية وتماسكها ولأنها تعمل على تقدم وازدهار الحضارة من الناحية العلمية والعمرانية وتمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تدفع إلى التكامل فى البناء الاجتماعى الذى يقوم بإرساء العلاقات الإنسانية بين البشر على أساس الإيمان والإخلاص وتدفع إلى التكامل فى ميدان العمل والصناعة والمعرفة وكلا التكاملين ضرورة لا بد منهما لإيجاد حياة إنسانية سعيدة [٣] .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٧ .

(٣) الإسلام وحقوق الإنسان د. محمد عمارة ٥٥ / ٦٥ .

المبحث الثانى
التعريف بحقوق الإنسان فى الإسلام

أولا : التعريف بالحق

معنى الحق فى اللغة [١] :

معنى الحق فى اللغة واضح ومستقر وقد ورد كثير فى القرآن الكريم والسنة النبوية فالحق نقيض الباطل كما فى قوله تعالى : **(ولا تلبسوا الحق بالباطل)** [٢] ، ومعناه أيضا الثابت بلا شك والوجوب كما فى قوله تعالى : **(لقد حق القول على أكثرهم)** [٣] ، والحق من أسماء الله وقيل من صفاته قال تعالى : **(ثم ردوا إلى الله مولاهم)** [٤]، وقد يرد بمعنى النصيب قال تعالى : **(وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)** [٥] ، كما قد يدل على الندب كما فى الحديث الشريف:"حق المسلم على المسلم ست قيل وما هن يا رسول الله قال إذا لقيته فسلم عليه إذا لقيه فليسلم عليه [٦] .. "وقد يدل على ما يجب أن يقع ويؤدى وتترتب عليه مصلحة قال تعالى : **(ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين)** [٧] وعند نفى الحق تنتفى المصلحة ويقع الضرر والأذى قال تعالى **(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون)** [٨] وقد

---

(١) المعجم الوسيط ١٨٨ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط دار الدعوة استانبون تركيا ، لسان العرب لابن منظور ٩٤٠/٢ (ح ق ق ط دار المعارف بمصر تحقيق عبد الله على الكبير وأخر ٤٢ .

(٢) سورة البقرة من الآية /٤٢ .

(٣) سورة يس الآية ٧ ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور عبد الكريم زيدان .. أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الإسلام رسالة الدكتوراه قدمت إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ ص ٧٦ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦٢ .

(٥) المعارج الآية ٢٤ .

(٦) الحديث رواه مسلم من باب حق المسلم للمسلم ص ١٤٣ ط دار الريان للتراث .

(٧) سورة الشورى الآية ٤٢ .

(٨) سورة فصلت الآية ١٥ .

وردت كلمة "الحق" فى القرآن الكريم (١٤٩) مرة وكلمة "حق" (٣٣) مرة وكلمة "حقا" (١٧) مرة وكلمة "حقه" (٣) مرات [١] .

معنى الحق فى الاصطلاح :

لم يحظ تعريف الحق من الناحية الشرعية باهتمام الفقهاء المسلمين قد يكون عرفه البعض بأنه "حكم يثبت" ولكن هذا التعريف قد انتقد فقد أوضح الأستاذ مصطفى الزرقا أن التعريف بلفظ "الحكم" مبهم ولا يوضح حقيقة مفهوم الحق وميزاته التى يجب أن يكشف عنه الحق وهى الاختصاص والسلطة أو التكليف ثم قدم تعريفا للحق هو "اختصاص يقرر به الشارع سلطة أو تكليفا" ثم يحلل تعريفه إلى العناصر التالية :

١ – الاختصاص هو علاقة تشمل الحق الذى موضوعه ماليا كاستحقاق الدين فى الذمة بأى سبب كان .

٢ – هذه العلاقة حتى تصبح حقا يجب أن تختص بشخص معين أو بفئة إذ لا معنى للحق إلا عند ما يتصور فيه ميزة ممنوحة لصاحبه وممنوعة عن غيره .

٣ – إن ما غيره الشارع حقا كان حقا وما لا يغيره كذلك فلا .

٤ – وقلنا "سلطة أو تكليف " لأن الحق قد يكون سلطة وقد يكون تكليفا والسلطة نوعان سلطة على شخص وسلطة على شئ معين فالسلطة على شخص كحق الولاية على النفس ، فللولى على القاصر سلطة التأديب والتعليم [٢] .

وقريب من هذا التعريف السابق ما ذكره الشيخ على الخفيف حين عرف الحق بأنه "مصلحة مستحقة" شرعا ومعنى هذا التعريف أن الحق يجب أن يكون مصلحة لمستحقه تتحقق بها له فائدة مالية أو أدبية ولا يمكن أن يكون ضررا وهذه المصلحة لابد أن تكون لصاحبها يستحقها ويختص بها ، وهناك تعريفات كثيرة للحق شرعا لم نسلم من الاعتراض [٣] .

---

(١) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٦٠/٢٥٥ وضع محمد فؤد عبد الباقى ط دار الحديث بالقاهرة ط أولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م .

(٢) الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد د. مصطفى الزرقاء ١٦/١٥/٢ ط دمشق ١٩٦١ .

(٣) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية د. جابر إبراهيم الراوى ٤٣ ، ٤٧ سنة ١٩٦٩.

ثانيا : حقوق الإنسان فى الإسلام

إن الحق من أهم المثل التى يعتمد عليها الإسلام فى تزكية نفوس المسلمين وإعلاء شأنهم ويتمثل الحق فى العقيدة الصحيحة والعلم النافع والعمل الصالح والخلق الكريم لذلك نجد أن القرآن يطلق اسم الحق على الإسلام فقال تعالى **(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)** [١] ، **(وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)** [٢] ، **(وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)** [٣] والدعوة إلى الحق هى دعوة الأنبياء خاصة كان الناس أمة واحدة [٤]، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين عن الله .

وللفرد فى مجتمعه حقوق كثيرة : أهمها تحقيق العدالة والمساواة بين الجميع دون تميز ودون محاباة للفرد دون أخر فالكل سواء أمام الله سواء لا يتفاوتون إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

والكل فى نظر الإسلام له حق الحياة والعيش الكريم والحرية دون إضرار بالآخرين وحق الرعاية .. وجماع كلمة الحق والعدل التى جاء بها الإسلام الذى يساوى بين الناس جميعا لا يخص أمة دون أمة ولا طائفة دون طائفة ولا جنس دون جنس فهو عدل مطلق يساوى بين الناس جميعهم لقوله تعالى **(إن الله يأمركم أن تؤدى الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به)** [٥] وقوله سبحانه **(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)** [٦] فالله تعالى هو مصدر تقرير الحق والواجبات لكافة البشر دون تمييز وتشريعه هو العدل المطلق قال تعالى **(لقد أرسلنا**

(١) سورة التوبة الآية ٣٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨١ .

(٣) سورة الإسراء الآية ١٠٥ .

(٤) انظر معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان ٥٣ ط مؤسسة الرسالة ٢٠٠١.

(٥) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٦) سورة النحل الآية ٩٠ .

رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) [١] ، ثم قال تعالى **(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان)** [٢] وحين ظهر الإسلام فى خضم هذا الصراع بين النظم السياسية والاجتماعية التى تسود المجتمع والتى تقوم على أسس من الطبقية وعلى أساس من الوثنية ، فكانت الشعوب تعانى ضربا من الظلم والاستبداد والاحتقار فأقر الإسلام كرامة الإنسان ورفع من شأنه فأعلى القيم الإنسانية وأعاد كرامته المسلوبة وكفل له العيش الكريم وحقق له أفضلية على سائر المخلوقات قال تعالى **(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)** [٣] واستخلفه الله تعالى فى الأرض وفضله على سائر المخلوقات قال تعالى **(وإذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال أنى أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها)** [٤] .

ثم قال تعالى **(إذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)** [٥] .

ثم قال تعالى **(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه)** [٦] ونهى سبحانه وتعالى عن استعباد الإنسان لأخية الإنسان قال تعالى **(وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)** [٧] وهدم نظام الطبقات الذى كان يقوم عليه المجتمع فأعلن أن الناس متساوون لا فرق بين إنسان وأخر إلا بالتقوى قال تعالى **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى)** [٨] قال تعالى **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق**

(١) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٥) سورة ص الآية ٧١ ، ٧٢ .

(٦) سورة لقمان الآية ٢٠ .

(٧) سورة المؤمنون الآية ٢٥ .

(٨) سورة الحجرات الآية ١٣ .

منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) [١] كما أعطى الإسلام الإنسان ما تستحقه إنسانيته من احترام وهدايته عن طريق الأنبياء والرسل وقال تعالى **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** [٢] ثم قال تعالى **(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذير)** [٣] وإن الأنبياء خلقوا من نفس الطينة التى خلق منها الناس قال تعالى **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)** [٤] ثم قال تعالى **(وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين)** [٥].

أما فى مجال علاقة المسلم بغيره فقد نظمها الإسلام تنظيما دقيقا شاملا فى كافة جوانبها تنظيما متناسقا ، تعتمد علاقة الفرد فيه على أساس المحبة فى الله والأخوة والتضامن والتعاون على البر والتقوى والسعى لإيصال الخير للجميع وكشف الشر والأذى عن الآخرين والتحلى بكل خلق فاضل وكريم .

فهذا هو جماع حقوق المؤمنين تجاه بعضهم الآخر وواجبات على كل فرد منهم يجب التزامها حتى يكون كامل الإيمان وصادق الإسلام [٦].

يقول صلوات الله وسلامه عليه "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" [٧] ، ويقول عليه الصلاة والسلام "لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام " [٨] ، ويقول ﷺ "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " [١] ، لقد كفل الإسلام للإنسان حق الحياة والحرية

---

(١) سورة النساء الآية ١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٧ ، ٨ .

(٦) دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق نخبة من أساتذة قسم العقيدة ١٩٨٢ بحث الأخلاق أ .د. فوقى حجاج ١٨٨ .

(٧) رواه مسلم ط ١ دار الحديث رقم ٧٢ ج ١ .

(٨) رواه ابن ماجه والدار قطنى وغيرهما ورواه مالك فى الموطأ مرسلا .

لسانه ويده " [١] ، لقد كفل الإسلام للإنسان حق الحياة والحرية والأمن فالناس متساوون فى الحقوق والاعتبار .

وجاءت الشريعة الإسلامية بمبادئ تدعو إلى المساواة والعدالة والأخوة الإنسانية والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات والتكاليف قال تعالى **(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)** [٢] ثم قال تعالى **(ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)** [٣] ثم قال تعالى **(إن الله يأمر بالعدل والإحسان)** [٤] وأمر الله تعالى المسلمين أن يراعوا قواعد العدالة حتى مع أعدائهم قال تعالى **(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)** [٥].

لقد كفل الإسلام – فى داره – للجميع الحرية والأمن والمساواة فأعطى الفرد حريته وكفل له حرمته وأطلق له يده فى العمل والارتزاق وترك له الحرية المطلقة فى العبادة والفكر والرأى ورعى الإسلام الحرية الشخصية ، ونهى عن الاعتداء عليها وأوجب على الحاكم الرفق بالرعية وأجاز لهم مناقضة الحاكم وسؤاله وأروع ما روى لنا التاريخ تلك الخطبة التى استفتح بها أبو بكر خلافته يقوله "إذا أحسنت فاعينونى وإن أسأت فقومونى" وتلك الكلمات التى قالها عمر "إنما متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فتابعونى وإن زغت فقومونى" .

أما القرآن الكريم فقد كفل هو نفسه حرية المعتقد بآية **(لا إكراه فى الدين)** ، وطبقها عمر بقوله المشهور الذى ذهب مثلا [٦] متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ولننظر لقول الرسول الكريم ﷺ لقواد جيشه فى غزوة مؤته ووصيته لهم حتى نعلم بمبادئ الإسلام فى أصعب المواقف ونظرياته فى نتائج حمل السلام

---

(١) رواه مسلم رقم ٦٥ ج١ ط دار الحديث .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٨ .

(٤) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٦) الإسلام نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى ١٨١ .

قال "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا أغزو باسم الله في سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا وتغلوا وتقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا منعزلا في صومعته ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء" [١] .

قارن هذا بما يحدث فى دنيا العلم والحضارة وكيفية استعمالها للسلام .

هذه بعض قواعد الشريعة الإسلامية التى جاءت بها لحماية حقوق الإنسان وكرامته .

الأخلاق فريضة دينية وضرورة مصيرية :

لا ريب أن الكوارث والمصائب التى تصيب المجتمعات الإنسانية عامة والإسلامية خاصة من انتهاك حقوق الإنسان ومن ظلم الإنسان للإنسان وارتكاب الجرائم واحتقار القوى لخيرات الضعف والتهديد والضياع والذل والطغيان والاستبداد والقتل ونشر الرعب واغتصاب الأموال وانتهاك الأعراض وإشاعة القلق والهلع بين المسالمين والوادعين .

كل ذلك نتيجة لسوء الأخلاق والانحراف عن القيم الأخلاقية التى فطر الله عليها الإنسان لأن الإنسان بدون قيم أخلاقية ينقلب إلى وحش كاسر يحطم كل من يقف فى طريق أهوائه ونزواته فعندما تخلو القلوب من الإيمان والأخلاق وتتجرد النفوس من صفات الإنسانية يتحول من لا خلاق لهم إلى وحوش كاسرة وحيوانات مفترسة لا دين يردعهم ولا إنسانية تمنعهم أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

فتهذيب الأخلاق أمر ضرورى فى حياة الأمة الإسلامية ولا تكون الأمة خير أمة كما وصفها الله إلا إذا أخذت به وذلك لأن أمة بغير خلق معناه أمة بغير حياة .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ********* فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا [٢]

إن الإسلام هو دين الحياة ودين الأمن والسلام فلم تعرف البشرية دينا من الأديان ولا قانونا من القوانين الوضعية كرم الإنسان وحفظ حقوقه ووفر له كل ضمانات الحياة كما فعل المنهج الإسلامى

---

(١) المصدر السابق ١٦٥ .

(٢) السير والسلوك إلى ملك الملوك ص ٤ . للشيخ قاسم بن صلاح الين الحلبى / دار مكة للطباعة .

فقد رعى المنهج الإسلامى الإنسان وهو وليد وحفظه وهو شاب وأوصى به وهو شيخ كبير وذلك يدل على عظم مكانة الإنسان فى الإسلام وتقدير للإنسانية وتكريمه لها .

فلم يترك المنهج الإسلامى الإنسان يتعرض للهلاك والدمار بل جعل له تشريعا ينظم حياته فى المجتمع الذى يعيش فيه ويحفظ حياة الجماعة البشرية ويكفل الأمن للضعيف ويرد اعتداء القوى ويحفظ للإنسان حياته وماله وعرضه وذلك من خلال ما شرعه الله تعالى من تحذيره لأى اعتداء على الإنسان حتى لو كان بكلمة نابية وجعله كبيرة من الكبائر ووعد عليها بالعذاب والعقاب الشديد فالنفس الإنسانية بنيان الرب ملعون من هدمه .

ومن ثم فقد وضع من الشرائع ما يكفل الحياة الآمنة للمجتمع ويحفظ للإنسان حقوقه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والشخصية ويصون المجتمع من اغتصاب حقوق الأفراد الذى يؤدى إلى إشاعة الاضطراب وزعزعة الثقة وبث الفرقة بين بنى الإنسان [١] .

فالقيم الأخلاقية التى دعت إليها الأديان السماوية هى التى ترتفع بالإنسان عن مرتبته الراهنة وتعمل على العلو به عن المستوى الحيوانى الذى يقتصر على الماديات من طعام وشراب وشهوات إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان وتقدمه ورقية .

والقيم الأخلاقية هى التى تحقق للمجتمع أعظم ترابط بين أفراده والسمو بالجماعة عن المرتبة المادية الحيوانية إلى مرتبة الحضارة والمدنية وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات فى المجتمع على أسس نبيلة كريمة تعتمد على الإيثار والتفانى فى سبيل خير المجموع ، أكثر مما يعتمد على الأثرة والمنفعة الخاصة [٢] .

والصفات التى وصف الله تعالى به نفسه تبقى الإنسان منارات يترسمها فى فكره وسلوكه فالحلم والكرم والإحسان والرأفة والرحمة والصدق والأمانة والعدل والإنصاف قيم عليا ترفع المؤمن الذى تمثلها فى سلوكه وحياته .

فكم يكون مجتمعا فاضلا ذلك المجتمع الذى يتمثل بهذه الصفات الإلهية وقد كانت تلك القيم جديدا على العالم كله شرقيه وغربيه وعلى الفرس والروم والعرب على السواء .

---

(١) انظر منهج الإسلام فى إصلاح الفرد والمجتمع د. مجدى عبد الغفار ص ٣٥٨. رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة .

(٢) انظر معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان ٢٥٢ . ط مؤسسة الرسالة .

ولعل هذا يفسر لنا السر فى انتشار الإسلام بتلك السرعة المذهلة كما يفسر لنا تغلب القيم الإسلامية على القيم الفارسية واليونانية التى تقوم على أساس مادى ، لقد كانت المعركة بين هذه القيم لإنقاذ الإنسانية ولأخذ بيدها فى طريق التقدم والرقى لذلك كان النصر للقيم الإسلامية .

فمهما بذل المجتمع فى هذا العصر من جهد فلن يتخلص من مشاكله ولن يتوقف اعتداء الإنسان على الإنسان ولن يستتب الأمن بين ربوعه ولن يطمئن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ولن تتحقق الطمأنينة والاطمئنان والأمن والأمان وينعم الناس فى الحياة إلا بالعودة لتشريع السماء والحفاظ على ما نادت به الأديان السماوية من أخلاق وفضائل وآداب .

من أجل ذلك أوجب الله تعالى على عبادة التخلق بالأخلاق الكريمة الفاضلة التى تجعل منهم أمة واحدة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وحرم عليهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وكل قول أو عمل يكون فيه إيذاء للآخرين وفصل لنا فى كتابه العظيم كيف يكون الخلق الكريم والقول الطيب الذى يحفظ على الناس إنسانيتهم وكرامتهم وحياتهم .

فأساس الإسلام وعنوان الشرف حسن الخلق وهو مضمون ما نص عليه القرآن الكريم فقد كان رسول الله ﷺ (خلقه القرآن) ، وأن التحلى بالفضائل والقيم الأخلاقية هو أفضل وأعز وأجمل ما تحلى به الإنسان فى الحياة الدنيا وذلك اقتداء بالقرآن الكريم فى بنائه للإنسان المسلم على الأخلاق الحميدة فقد مكث النبى ﷺ ثلاثة عشر عاما فى مكة لا يعلمهم سوى العقيدة .

والأخلاق فلم يفرض عليهم شيئا من العبادات والأحكام فكان التركيز فى بناء الفرد المسلم على العقيدة أولا ثم الأخلاق ثانيا لأنه إذ شاع الخلق الحسن والسلوك الطيب فى الحياة أثمرت حياة ملائها السعادة والهداية والإصلاح "لأن الأخلاق هى روح الحياة الإنسانية وضوء عينها وقبس النور فى هذا الوجود المظلم وسر المبدع الأول الذى قذف به فى قلوب بنى البشر منذ اللحظة الأولى لوجودهم" .

وأن الرذيلة وسوء الخلق وبال ودمار وهلاك فى الدنيا والآخرة إذا شاعت فى أمة أهلكتها وإذا انتشرت فى قرية أو مدينة دمرتها وعلى أثرها يظهر الفساد ونشر الفزع بين الناس . وتنتهك حقوق الإنسان .

ضرورة الأخلاق لحفظ حقوق الإنسان :

لا شك أن الأخلاق ضرورة حتمية لحفظ كيان المجتمع الإنسانى وذلك لما يلى :

أولا : تخليص البشرية فى عالمنا المعاصر من الآثم والعدوان والشرور المتفشية فى طبقات المجتمع الإنسانى ، والتهديد والضياع والخنوع والذل وويلات الحروب والاستسلام لطغيان الظلم والاستبداد.

ثانيا : الأخلاق لا غنى عنها للأفراد والمجتمعات من أجل حفظ الأمن والسلام فى شتى بقاع الأرض ونشر العدالة بين بنى الإنسان لذلك كانت حاجة الإنسان إلى الأخلاق أهم من الحاجة إلى العلم ، لأن العلم سلاح ذو حدين يستخدم للبناء والتعمير والرقى وتحقيق رفاهية الإنسان ، كما يستخدم للهدم والتدمير ولا ينضبط إلا بالأخلاق .

ثالثا : الأخلاق هى الركيزة الأساسية التى يتوقف عليها حقوق الإنسان فى الأديان السماوية عامة ورسالة الإسلام خاصة لأنها ركن من الأركان التى يتوقف عليها بقية الأركان الأخرى من حق وحرية ومساواة .

من أجل ذلك كانت المهمة العليا والركيزة الأساسية الأنبياء والمرسلين هى الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسبة سلوك الإنسان وذلك بما تضمنه المصدرين الرئيسين (القرآن الكريم والسنة المطهرة) من نظم وقوانين وتشريعات هدفها وغايتها حفظ حقوق الإنسان .

من أجل ذلك كانت (الأخلاق هى الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم ، ولهذا نرى الباحثين والفلاسفة قد اتفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد لصالح نفسه ، وللمجتمع فى جملته ، فكما أن الفرد يضيره ويفسد أعماله أن يكون كاذبا مرائيا حسودا ماكرا ، كذلك تفسد المجتمعات بشيوع هذه الصفات فى آحادها .. لهذا أول ما توجهت إليه عناية الفلاسفة والمشرعين العاملين على إنهاض الجماعات البشرية – الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة لأنها الدعامة الأولى فى بناء كل مجتمع سليم ولم يبالغ (شاتوبريان) حين قال : "الأخلاق أساس كل مجتمع" ، من أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء الحث على الأخلاق الفاضلة ، وجاء القرآن الكريم مشددا على الاستمساك بها لأنها هى التى تحقق الفوز بالنعيم الأخروى) .

وبالأخلاق يتحقق العدل المطلق الذى يسوى بين الناس جميعا حيث تسود المودة والأنصاف والرحمة والاطمئنان والثقة والتكريم والبر والإحسان ورعاية مصالح الفرد والمجتمع وأن الضوابط الأخلاقية التى وضعها الشارع الحكيم قد كفلت حماية حقوق الإنسان "رجالا ونساء" على حد سواء ، إن صاحب العدل إنسان مرهف الحس والشعور يؤذى شعوره وحسه وذوقه أن يتعدى على حقوق الناس .

لقد حظى موضوع الأخلاق بعناية واسعة من الأديان السماوية والمصلحون والاجتماعيون والفلاسفة وعلماء الأخلاق والنفس وذلك لأن الأخلاق تشكل ركنا أساسيا فى بناء المجتمع وتساهم مساهمة فعالة فى حفظ حقوق الإنسان ، فلابد للإنسان من القيم الأخلاقية الفاضلة لأنها أساس حياة المجتمع الإنسانى فكلما اشتد تمسك الإنسان بالفضائل كلما إزداد كمالا وسموا ورفعة وسعادة فى الدنيا والآخرة ، لأن الحياة المجردة عن الأخلاق ضياع وحيرة وقلق وعذاب وظلام بل نستطيع الجزم بانعدام طعم الحياة فى ظل غياب القيم الأخلاقية الطيبة .

لذلك فالأخلاق هى جوهر الإسلام وهى المحور الذى ترتكز عليه إنسانية الإنسان وهى الأساس فى تكوين الشخصية الإسلامية الفاضلة [١] .

فلا ريب أن المجتمع الإنسانى لا تستقيم له حياة ولا يهنأ له عيش ولا يستقر له حال إلا إذا كانت حياة الناس أساسها العدل فالفرد فى الإسلام لا يرضى أن يظلم ولا أن يظلم ، ويروض نفسه على أن يكون خير فرد فى الجماعة [٢] .

وبالأخلاق يتحقق الوفاء بالعهد فهو خلق كريم تخلق به الأنبياء والمرسلون وينجم عنه آثار عظيمة تحفظ حقوق الفرد والمجتمع يقول الله تعالى **(وأوفو بالعهد إن العهد كان مسئولا)** [٣] ، ويعلق الدكتور البهى على هذه الآية فيقول "وما تقدم من النهى عن ارتكاب الجرائم الاجتماعية الثلاث من قتل الأولاد خشية الفقر ومباشرة الزنا وقتل النفس بغير حق ثم النهى عن مباشرة مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، يشارك فى النمط الإنسانى الذى يبتغيه الإسلام

---

(١) دراسات فى العقيدة والأخلاق بحث أ.د. سامى حجازى ٢٣٦ .

(٢) الإسلام نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى ٤٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

للعلاقات الاجتماعية والوفاء بالعهد بين الأفراد بعضهم ببعض هو جانب فى هذا الإطار كذلك ، ولكن العهد الذى يرضى عنه الله هو العهد فى سبيل الخير بين الناس وليس العهد على الظلم والاعتداء ومن أجل ذلك الذين يشاركون حاكما فى مسئولية الاعتداء والظلم للأبرياء لا عهد بينهم وبينه على سبيل الحقيقة يجب الوفاء به [١] ، فالوفاء بالعهد فى الإسلام يشمل كل ما جاء به الإسلام من أمر ونهى. فمن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربى ، ومن عهد الله توفيه الكيل بالميزان والقسط ، ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ومن عهد الله حرمة قتل النفس إلا بالحق [٢] .

وبالأخلاق يتحقق الرحمة التى هى أجل الأخلاق الكريمة التى يمنحها الله تعالى للإنسان ويحبيه بها فقد وصف الله رسوله ﷺ فقال **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** [٣] حقا كان رسول الله ﷺ رحمته لجميع الناس تلك الرحمة التى شملت الأصدقاء والأعداء والكبير والصغير والإنسان وجميع المخلوقات التى خلقها الله تعالى ، فالرحمة ذلك الخلق الرفيع من مستلزمات النبوة يحتاج إلى لين ورقة ورحمة ورأفة فقال تعالى **(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)** [٤] .

---

(١) تفسير سورة الإسراء د. محمد البهى ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) ظلال القرآن الشهيد سيد قطب ١٢٣٣/٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٤) آل عمران الآية ١٥٩ .

المبحث الثالث
العلاقة بين الأخلاق وحقوق الإنسان فى الإسلام

تمهيد

لا ريب أن العلاقة بين الأخلاق وحقوق الإنسان فى الإسلام متلازمان لا ينفصلان أبدا بحال من الأحوال فلا قيام لحقوق الإنسان إلا بالأخلاق المحافظة على حقوق الإنسان فكل ما جاء به الإسلام من تعاليم وآداب ونظم وقوانين وأحكام فى كل ما يشتمل عليه من أحكام العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق هدفها والغاية منها حفظ حقوق الإنسان من البغى والعدوان وحماية لكيان الإنسان وصيانة لكرامته ، وذلك يرجع إلى مكانة الإنسان فى الإسلام والهدف من وجوده ، ذلك أن الحفاظ على الفرد والمجتمع واستقراره وأمنه وأمانه هدف أساسى من أهداف الإسلام .

والقرآن الكريم هو الدستور الشامل لكل ما يحتاج إليه الإنسان فى عاجله وآجله وفى الحياة ومصلحها فى كل زمان ومكان جاء بتشريع إلهى معصوم ، ودستور ربانى مقدس **(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)** [١] فهو يشرع للحياة الواقعية ، ويحيط بالحياة الإنسانية كلها ، وفى كل فرع من فروع هذه الحياة ، بسياج منيع من الفضيلة والأخلاق ، يحفظ على الناس حياتهم ويصون حقوقهم ، وهو نظام إلهى كامل شامل لكل نواحى الحياة فيشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس من نظم لكل مجالات الحياة قد وضع القوانين والمبادئ لكل فرع من فروع تلك الحياة فنظم علاقة الإنسان بربه بتشريع العقيدة والعبادات ونظم علاقة الإنسان ببنى الإنسان بتشريع دستور الأخلاق والمعاملات ، ونظم علاقة الإنسان بأسرته بتشريع أحكام الأحوال الشخصية إن القرآن هداية الله للحياة كلها وركيزة أساسية لحفظ حقوق الإنسان وصيانة كيانه ، ويظهر هذا واضحا فى الارتباط الوثيق بين أحكام الدين عقيدة وشريعة وعبادة ومعاملات وارتباط كل ذلك بالأخلاق . كما سيتضح ذلك فى المبحث الرابع .

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الأخلاق وحقوق الإنسان فيما يلى توضيح هذه العلاقة من خلال المسائل التالية :

---

(١) سورة فصلت الآية (٤٢) .

أولا : قيمة الإنسان فى الإسلام

من المعلوم أن الفرد هو اللبنة الأولى والخلية الحية التى يتكون منها المجتمع ، ومن هنا كانت عناية الإسلام بتربية الإنسان وتنشئته تنشئة صالحة فقد أقام فى ضميره وازعا أخلاقيا فهو يخشى الله ويخافه فى السر والعلن ، ويحول هذا الوازع بينه وبين سلوك الطريق غير السوى ويبعده عن مواطن ارتكاب الإثم والمعصية أو انتهاك حقوق الغير ويحفظه من التخبط والانحراف وذلك عن طريق الإعداد الخلقى للإنسان الذى جعله الإسلام على قمة أهدافه التوجيهية، فالأخلاق الإسلامية لا تدع جانبا من جوانب حياة الفرد والجماعة والأمة والإنسانية كلها إلا وتناولته بالمعالجة الكاملة والإصلاح الشامل والتنظيم الفريد ، وأقامته على أمتن القواعد وارفع المثل وأسمى الأهداف [١] .

فالرسالة المحمدية رسالة تربية وتعليم للأخلاق الفاضلة وتهذيب للنفوس وتربية البشرية وتعليما لمعالى الأخلاق ومحاسن السلوك .

ومنهج الإسلام فى العناية بالفرد هدف أساسى من أهداف المنهج الإسلامى الذى قدم للإنسانية نظاما أخلاقيا عمليا شاملا هدى ورحمة للعالمين لم يسبق الإسلام فى هذا المنهج أى دين آخر من الأديان السماوية السابقة كما لم يصل إلى سموه أى نظام أيا كان من صنع البشر فقد جعل القرآن الكريم الهدف الأصلى من بعثة النبى العظيم ﷺ هو تربية النفوس البشرية وتزكيتها وتعليمها مكارم الأخلاق ، ، بل جعل تهذيب النفوس وتزكيتها والتربية الخلقية مقدمة على تعليم الكتاب والحكمة نظرا لأهميتها البالغة فقال تعالى **(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)** [٢] .

وتتجلى قيمة المنهج الإسلامى فى الربط بين العقيدة والشريعة.. فالإقرار بالعبودية لله وحده ، والقيام بالعبادات المفروضة خالصة لوجهه سبحانه ، هى أكبر وازع أخلاقى يسمو بالنفس ويهذب القلب **(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)** [٣] ، كما أن الإيمان بأن

---

(١) لمحات فى الثقافة الإسلامية د/ عمر عودة الخصى ٢٣ بتصرف مؤسسة الرسالة.

(٢) سورة الجمعة الآية ٢ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٦٢ – ١٦٣ .

الإسلام عقيدة ونظام ، أى أنه دين ودولة ينظم جميع شئون الحياة ، إنما يعنى الأساس الذى تقوم عليه الشريعة الإسلامية هو أساس ثابت لا يضل ، لأنها من عند الله العليم الخبير ، الذى يعلم حقيقة الإنسان ودخائل نفسه وما يحقق مصلحته وسعادته وقيمة الفرد فى الإسلام هى انعكاس لما يتحلى به الفرد من مكارم الأخلاق حسبما جاء بها الإسلام وفقا للأسس التالية [١] :

أولا : عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحرصه على تقويم الأخلاق [٢] :

لقد توجهت عناية الإسلام بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها والمراد من تزكية النفس تطهيرها من نزعات الشر والإثم ، وإزالة حظ الشيطان منها وتنمية الفطرة الخيرة فيها ، ومتى حصلت فى النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها ، وتهذيب طباع النفس تهذيبا مصلحا ومقوما وكابحا وموجها ، فيتهيأ المناخ النفسى الصالح لتفجير منابع الخير ، وقد بين القرآن الكريم أن من زكى نفسه فقد أفلح وأن من دسى نفسه – أى غمسها فى أدناس الكفر والمعصية – فقد خاب فربط الفلاح بتزكية النفس بالإيمان والتقوى وربط الخيبة بتدنيس النفس بالكفر والعصيان قال الله تعالى **(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)** [٣] .

ولقد ذهب بعض الباحثين والفلاسفة إلى أن الأخلاق غرائز فى النفس الإنسانية لا تقبل تقويما ولا تعديلا وقد استغل هذه المقالة من ثقلت عليهم مجاهدة نفوسهم وذهبوا يبررون ما أقاموا عليه من ذميم الأخلاق بأنه ليس فى وسعهم تغيير ما غرس فيهم من الأخلاق الذميمة ، والصواب من القول أن من الأخلاق الكريمة ما يطبع عليه صاحبه فهذا يحمد الله على ما آتاه من فضله ومن الأخلاق الكريمة ما

---

(١) انظر حقوق الإنسان فى الفكر الوضعى والشريعة الإسلامية د. عبد الواحد محمد الفار .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبد الرحمن الميدانى ص٣٩، ٤١ط ١٩٨٧ دار القلم.

(٣) سورة الشمس الآيات ٧ : ١٠ .

ينال بالاكتساب والمجاهدة [١] ، والأدلة على أن الأخلاق قابلة للتعديل والتقويم كثيرة منها [٢] :

الأول : الرؤية والمشاهدة : فنحن نشاهد الجبان تحول بالمجاهدة والتدريب إلى شجاع ، كما نرى الكذوب بالتربية والتعليم أصبح صادقا ، وكم رأينا من رجال ساءت أخلاقهم عندما خالطوا الأشرار وكم من رجال حسنت أخلاقهم عندما هدوا إلى الإيمان والأعمال الصالحة وعاشروا عباد الله الصالحين.

الثانى : إننا نرى دائما حيوانات تغيرت طباعها بالتدريب والتعليم فقد حدث أن درب الهر حتى عاش مع الفأر والكلب مع الهر ، ودربت القردة على أمور كثيرة عجيبة فإذا أمكن تقويم طباع الحيوان فالإنسان من باب أولى .

الثالث : جاءت جميع الشرائع داعية إلى مكارم الأخلاق ناهية عن ذميمها فلو كان تقويم الأخلاق وتهذيبها غير مستطاع فإن دعوة الشرائع إلى ذلك يكون عبثا لا طائل تحته ، وكل عاقل يعلم أن الله ما أمر إلا بالممكن المستطاع ، مصداقا لقوله تعالى **(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)** [٣] ، وفى كتاب ابن حزم الأخلاق والسير فى مداواة النفوس نرى أنه أفرد فصلا من كتابه للحديث عن مداواة الأخلاق الفلسفية فمثلا فى علاج العجب يقول [٤] "من امتحن بالعجب فليفكر فى عيوبه ، فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أن مصيبته إلى الأبد ، وأنه أتم الناس نقصا وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تميزا ، وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ولا عيب أشد من هذين لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فعالجها وسعى فى قمعها" .

---

(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة لعمر الأشقر ص ١٦١ ، ١٦٢ ط ١٩٩٧ دار النفائس .

(٢) بتصرف : نحو ثقافة إسلامية أصيلة لعمر الأشقر ص ١٦٢ ، ١٦٣ ط ١٩٩٧ دار النفائس .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٤) الأخلاق والسير فى مداواة النفوس لابن حزم الأيدلسى ١٩٨ ط ١٩٨١ دار المعارف .

إن التزكية التى يهتم بها الإسلام فى سائر نظمه هى التى تثمر سعادة الفرد والجماعة ، وذلك بما منحه الله عز وجل للإنسان من الهداية والإلهام اللذان فطر الله الناس عليهما .

فكل إنسان فى هذا الوجود قادر على مزاولة الفضائل الإنسانية بفطرته لأن الله وضع بذورها فى فطرة الإنسان وغرس جذورها فى الصدور ولكن الإنسان قد ينحرف عن الطبيعة جريا وراء الأهواء فيضل ويشقى ويذل ويخذى **(ومن يضلل الله فما له من هاد)** [١] كذلك منح الله الإنسان هداية الحواس والمشاعر وهى المكملة لهداية الإلهام ثم منحه عقلا يفكر ويدبر ويقدر ويصحح أخطاء الحواس أما هداية الدين فهى أقوى الهدايات كلها ، فهى التى تهدى الضال وترشد الحائر ، وتنصف المظلوم وتقوم الأخلاق وتصلح المعوج ولولا هداية الله تعالى للإنسان لشرد الإنسان وتمرد وسيطرت عليه غرائزه الجامحة كالغضب والانتقام وحب السيطرة والشهرة فكان الدين ميزانا للعقول وموجها للنفوس ومهذبا للطبائع البشرية .

ولولا الدين لاستسلم الإنسان للأهواء والأوهام وأطاع طبائعه وغرائزه وتردى فى الدرك الأسفل من السوء والبغى والجور وسوء المعاملة وفساد النية وعمت الهمجية وصارت إلى وحشية وإباحية وفوضى أخلاقية تحتاج إلى الهدى الإلهى ليرشدها إلى الطريق السوى ، ويحمى ثمرات العقول من أن تسبب الدمار والبوار فى عصور العلم والحضارة [٢] .

ومن هنا فإن الإسلام إذا كان قد بدأ الرحلة مع الإنسان بالعقيدة الصالحة فوجهه إلى ربه وجعل غايته مرضاته وسبيله إلى ذلك عبادته فإنه جعل الإطار الذى يتحرك فيه المسلم وجماعته هو إقامة الأخلاق الفاضلة التى دعا إليها ديننا الحنيف [٣] .

ثانيا : الدعوة إلى تربية الفرد والمجتمع على مكارم الأخلاق

إن من أعظم أهداف الرسالة المحمدية بناء الفرد الصالح ، والمجتمع الفاضل وفق المنهج الربانى القائم على التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل لإيجاد الإنسان الخليفة والأمة الربانية ، المتآلفة المتآخية المتوادة التى يعمل فيها الفرد لمصلحة الجماعة ، والجماعة

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣ .

(٢) مجلة لواء الإسلام ٧٧ – ٧٨ مقال الشيخ محمد حافظ سليمان .

(٣) الإسلام وبناء المجتمع د . أحمد محمد العسال ١٠٦ ط دار القلم الكويت .

لمصلحة الفرد ، فى توازن وتناسق وتكامل يؤدى إلى إيجاد المجتمع الفاضل والإنسانية السعيدة التى طالما راودت أحلام الفلاسفة والمصلحين والمفكرين عبر السنين وظلت فى عالم الخيال ولم تتحقق فى عالم الواقع إلا فى ظل التربية القرآنية والسنة النبوية .

وقد مدح البارئ سبحانه وتعالى صفوة خلقه وسيد أنبيائه ورسله محمدا صلوات الله وسلامه عليه بأنه على خلق عظيم وحصر البارى سبحانه وتعالى رسالة الإسلام وأوضحها على لسان نبيه فى قوله ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [١] والأحاديث فى هذا الشأن أكثر من أن تحصى .

منها على سبيل المثال لا الحصر قوله ﷺ "إن من خياركم أحسنكم أخلاقا" [٢] "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم" [٣] ، إن حسن الخلق يوجب كمال الإيمان والدخول فى الجنان وسوء الخلق على العكس من ذلك يفسد الإيمان ، وأوضح النبى ﷺ بأن أقرب المؤمنين منه منازل فى الجنة أحاسنهم أخلاقا الموطؤن اكنافا الذين يألفون ويؤلفون ونفى عن المؤمن أن يكون طعانا أو لعانا أو فاحشا بذيئا .

فمما لا شك فيه أن هذا الاهتمام النبوى – الذى هو فى أصله منهج إلهى – بمكارم الأخلاق يعود إلى ما لها من أثر كبير فى حياة الإنسان المسلم الفرد ومن ثم فى المجتمع الإسلامى كله .

---

(١) رواه أحمد (٣١٨/٢) والبخارى فى الأدب المفرد (٢٧٣) ، والحاكم (٦١٣/٢) عن أبى هريرة سند حسن ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، وقال ابن عبد البر : هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره وقال الهيثمى رجال أحمد رجال الصحيح ، المقاصد الحسنة الزرقانى ط١٩٨١ ص ٦٩ وورد الحديث فى مطأ مالك بلفظ "بعثت لأتمم حسن الأخلاق" ص ٨٠٥ ط ١٩٩٩ اليمامة .

(٢) سنن أبى داود كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصه مجلد ٢ ص ٢٢٠ دار الفكر .

(٣) رواه البخارى فى كتاب المناقب ج٢ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ط ١٩٩٨ – دار الكتب العلمية ، وأيضا مسلم باب كثرة صيامه ﷺ . ص ١٢٦٨ ط ١٤١٩ هـ دار المفتى وأيضا النووى فى رياض الصالحين فى باب حسن الخلق ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ط ١٩٨٦م مؤسسة الرسالة .

وهذا ما تحاول المطالب فى هذا الحديث المتواضع الإشارة إليه .

ويؤخذ من الحديث أن الرسول الكريم بعث ليتمم مكارم الأخلاق التى جاء بها الأنبياء والمرسلين من قبله فالرسول الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين وبعث إلى الناس أجمعين ، وجاءت رسالته صالحة لك زمان ومكان على خلاف رسالات الأنبياء السابقين التى كانت تقتصر على الزمان والمكان والناس الذين بعثوا لهم ، وقد أقر الإسلام الأخلاق الكريمة التى كان عليها العرب فى الجاهلية مثل المروءة والشجاعة والكرم .. وجاء الرسول الكريم ليتمم كل تلك الأخلاق الكريمة لتبقى أبد الدهر فلم يأتى يوم على الناس استحسنوا فيه الكذب أو الخيانة أو الغدر [١] .. الخ .

وعن جابر ﷺ قال : قال النبى ﷺ "مثلى ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة" ، وفى رواية عن أبى هريرة ﷺ زيادة "إلا موضع لبنة من زاوية" وقال فى آخره "فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" [٢] .

ثالثا : منهج الإسلام الخلقى فى تربية الفرد

إن الإسلام حين يرسم منهاجا خلقيا للإنسان ويحضه على إتباعه والتزامه إنما يهدف بذلك إلى أمرين اثنين :

أولهما : تحقيق إنسانية الإنسان كاملة .

ثانيهما : إيجاد مجتمع متعاون متحاب بناء .

أما الأمر الأول : فإنه يأخذ الإنسان كما هو دون أن تفسر إرادته أو يكلفها ما لا تطيق فالله عز وجل خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق أودعه نوازع وغرائز متعارضة ، أودعه نوازع الخير بالنفحة العلوية التى تشبه الجانب الملائكى ، وأودعه نوازع الشر وهى جانب الحمأ المسنون الذى يشبه الجانب الحيوانى وفى اجتماعهما والتوفيق بينهما يتحقق الابتلاء الإنسانى على هذه الأرض.

(١) سنن أبى داود كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصه – مجلد ٢ ص ٢٢٠ دار الفكر .

(٢) د.عبد العال أحمد العال (١٩٩٠) المنهل العذب الفرات ج٤ المكتبة الأزهرية للتراث .

لقد بين القرآن الكريم والنبى ﷺ بما علمه الله مواطن الضعف الإنسانى كلها ، والله عز وجل أكد ذلك مرارا وتكرارا فى كتابه الكريم **(وخلق الإنسان ضعيفا)** [١] فهو فرح فخور تارة ظلوم جهول تارة أخرى ، ملحاح لجوج خصم جدل هلوع جزوع عنيد كنود محب للمال مؤثر للدنيا كل ذلك وغيره قد بينه القرآن الكريم ، وعالج هذه النوازع فيه برفق ويسر ترغيبا وترهيبا للإقلاع عنها والتخلص من آثارها وبنى شخصية إنسانية نظيفة السلوك صادقة اللسان عفيفة الجوارح طاهرة الأردان تعيش على وجه الأرض وتنظر إلى ما عند الله والدار الآخرة وتوازن فى وجودها الدنيوى بين المادة والروح كل ذلك فى تسام مستمر ومحاولات جهادية دائبة نحو الأفضل ، والله عز وجل يأخذ بيد المقبل عليه ، ويوصله إلى بحبوحة رضاه !! **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين)** [٢] ، والنبى ﷺ ذو الخلق العظيم كان دعاؤه "اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى" .

الثانى : فإن الأخلاق الإسلامية تقوم أساسا على النظر للإنسان على أنه جزء من الجماعة لا يتجزأ ، وأخلاق الفرد نحو الجماعة تتمثل فى أمرين اثنين :

أولهما : بذل الفرد وعطاؤه وتضحيته فى سبيل الجماعة والقيام بكل ما يستطيعه من خير وفائدة نحو المجتمع .

ثانيهما : إمساكه عن الظلم والاعتداء قولا وفعلا [٣] .

وعلى هذين المرتكزين تقوم الأخوة الإسلامية صفا واحدا كالبنيان المرصوص يتنازل الواحد فيه لأخيه عن ماله ومتاعه ، بل ويعرض أحدهم تطليق زوجته ليتزوجها الآخر ! إن هذه الأخوة تستبعد فكرة المنافع فى التعامل وترسى قاعدة الإنسانية وتكريم بنى آدم .

وأما مكارم أخلاق رسول الله وحسن خلقه وتواضعه فهو معروف عند ذوى الفهوم .

قال القاضى عياض رحمه الله "من تأمل تدابير النبى ﷺ فى بواطن الخلق وظواهره وسياسته الخاصة والعامة مع عجيب شمائله وبدائع سيره فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم

(١) سورة النساء آية ٢٨ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٣) مكارم الأخلاق للإمام الطبرى تحقيق د. حمادة فاروق ط الثالث .

سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لا يمتد فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول وهلة" [١] .

وروى مسلم عن أبى كريب عن أبى أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت "ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئا قط لا عبدا ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا ينل منه شيئ فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيئ من محارم الله فينتقم لله عز وجل" [٢].

وثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عقبة عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فالرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

من أجل ذلك أمر الله تعالى الأمة الإسلامية أن تقتدى به ﷺ كى تتعلم الخير ليفعل ، والشر ليتقى قال تعالى **(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)** [٣] .

واستنادا إلى ذلك يجب على المسلم أن يتحلى بالقيم الأخلاقية التى يدعو إليها الإسلام كالصدق والأمانة وبرد الوالدين والأخوة وإغاثة الملهوف والصبر والتواضع والوفاء .. إلى غير ذلك من القيم والفضائل والأخلاق والمبادئ التى تزخر بها آيات القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة .

رابعا : حسن الخلق

حسن الخلق هو حالة تبعث على حسن معاشرة الناس ومجاملتهم بالبشاشة وطيب القول ولطف المدارة والرفق فى المعاملة، والبذل والعطف وكف الأذى ولين الجانب ولا شك أن ذلك هو السحر الحلال الذى به تملك قلوب الناس فمن الأمانى والآمال التى يطمح إليها كل عاقل حصيف ويسعى جاهدا فى كسبها وتحقيقها أن يكون ذا شخصية جذابة ومكانة مرموقة محببا لدى الناس عزيزا عليهم .

---

(١) الشيخ محمد السفارينى الحنبلى ١٩٧٢ شرح ثلاثينات مسند الإمام أحمد ج١ المكتب الإسلامى .

(٢) الحافظ بن كثير ١٩٧٧ البداية والنهاية ط ١ ج٥ بيروت مكتبة المعارف .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢١١ .

"وإنها لأمنية غالية وهدف سامى لا ينالـه إلا ذو الفضائل والخصائص التى تؤهلهم كفائتهم لبلوغها ونيل أهدافها كالعلم والأريحية والشجاعة ونحوها من الخلال الكريمة .

بيد أن جميع تلك القيم والفضائل لا تكون مدعاة للإعجاب والإكبار وسمو المنزلة ورفعة الشأن إلا إذا اقترنت بحسن الخلق وازدانت بجماله الزاهر ونوره الوضاء فإذا ما تجردت منه فقدت قيمها الأصلية وغدت صورا شوهاء تثير السأم والتذمر .

لذلك كان حسن الخلق ملاك الفضائل ونظام عقدها ومحور فلكها أكثرها إعدادا وتأهيلا لكسب المحامد والأمجاد ونيل المحبة والإعزاز" .

عناية القرآن بمكارم الأخلاق والسنة :

اهتم القرآن بالأخلاق اهتماما بالغا وأكد القرآن الكريم على أهمية الأخلاق الفاضلة للإنسانية جمعاء وتزكية النفوس وتعليمها مكارم الأخلاق التى تكون فى شتى مجالات الحياة كلها ، وتشمل سلوك الفرد كله وعلاقته بربه وبنفسه وبالآخرين بل وبالمخلوقات كلها ، فتربية الفرد على الأخلاق تجعله متصفا بالصفات الحسنة نافرا من الصفات السيئة .

لقد حفل القرآن الكريم بالآيات التى تحث المسلم على حسن الخلق والتحلى بالفضائل الأخلاقية والموسوعة الأخلاقية فى القرآن الكريم موسوعة كبيرة وباب الأخلاق فى السنة المطهرة باب عظيم ، ويمكننا أن نقف على مدى مكانة الأخلاق الفاضلة فى القرآن الكريم من خلال هذه الآيات التى يذكر الله فيها الناس بما يجب عليهم ، فمن ذلك قوله تعالى **(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحداهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم أن تكونوا صالحين فأنه كان للأوابين غفورا وآت ذات القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهما قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إن ربك يبسط الروق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل**

إنه كان منصورا ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ولا تمشي فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا)[١].

- ومن ذلك قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[٢].
- وقوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا)[٣].
- وقوله تعالى (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما)[٤].
- وقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)[٥].
- وقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)[٦].

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٢٣ : ٣٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٣) سورة النساء الآية ٣٦ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٤ .

(٥) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

- وقوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما)[١].
- وقوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)[٢].
- وقوله (ولا تصعر خدك للناس ولا تمشى فى الأرض مرحا إن الله لا يحب من كان مختالا فخور)[٣].
- وقوله (واقصد فى مشيتك واغضض من صوتك أن أنكر الأصوات لصوت الحمير)[٤].
- وقوله (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)[٥].
- وقوله (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون)[٦].

وإذا كان هذا هو موقف القرآن من دعوة الفرد الأخلاقية فإن السنة النبوية المطهرة قد تظاهرت فيها النصوص النبوية فى الدعوة إلى مكارم الأخلاق فقد جاء فى الحديث قول الرسول ﷺ .

- "اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"[٧].
- وقوله "من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٢ .

(٢) سورة النحل / ٩ .

(٣) سورة لقمان / ١٧ .

(٤) سورة لقمان ١٨ .

(٥) سورة فصلت /٣٤ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

(٧) رواه الترمذى باب ما جاء فى معال الأخلاق ٣/٢٤٩/٥٠ حديث ٢٠٨٧ ط دار الفكر ١٩٧٨ .

في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه" [١] .

- وقوله "**إياكم والجلوس في الطرقات" قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها قال فأما إذا أبيتم "فأعطوا الطريق حقه " قالوا وما حقه ؟ قال "غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالأمر والنهى عن المنكر"** [٢] .
- وقوله "**ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان**" [٣] ؛ وفي رواية أخرى (**آية المنافق ثلاث .. إذا حدث كذب وإذ وعد أخلف ، وإذ عاهد غدر وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم** "[٤].

فهذه الآيات والأحاديث تدعو – كما هو واضح – إلى حسن الخلق ، وتضع القواعد والأصول التى يجب أن تكون هى الأساس فى تربية الإنسان تربية مثالية ، وتأمر بالقيم العليا والآداب وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتسلك أحيانا سبيل الوعيد والتخويف لمن يتخلى عن هذه الصفات فتجعله من المنافقين [٥] .

لقد كانت حياة الرسول وسيرته بصفة عامة مدرسة تربوية خلقية سلوكية شاملة حتى الأنماط السلوكية التى لا تظهر أول الأمر أسس المفاهيم الأخلاقية كانت فى حياة الرسول موصولة بتلك الأسس ولو من وجه من الوجوه فكان لها صفة الظواهر الناتجة عن أخلاق راسخة فى النفس متمكنة من أركانها ومن البديهى بعد هذا أن يكون الكمال التطبيقى النبوى صورة مماثلة للكمال الذى وجه القرآن له ورغب فيه ، وهذا ما جعل السيدة عائشة أم المؤمنين تقول فى وصف خلق الرسول ﷺ "**كان خلقه القرآن**" [٦] ، أى كان خلقه مطابقا لما وجه له القرآن من فضائل ، وقد وصفه أصحابه رضوان الله عليهم بأنه أحسن الناس خلقا منهما ما روى فى صحيح مسلم عن

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

(٥) أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام أ.د/عبد الواحد الفار / ١٣١ .

(٦) راجع البخارى .

أنس قال كان رسول الله ﷺ "**أحسن الناس خلقا**" [١] ، ولذلك كان صلوات الله عليه مزكيا لمن آمن به واتبعه واقتدى به اهتدى بهديه ، بقوله وعمله وأخلاقه والتزكية والتطهر من أدناس الأعمال والأخلاق السيئة والنيات الفاسدة والعقائد والأفكار الباطلة قال الله تعالى فى وصفه فى كتابه (**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**" [٢] ، فجعل الله من صفاته أن يزكيهم ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرد بل لابد فيها من أن يكون الرسول مثالا واقعيا حيا لمايدعو إليه مما تكون به تزكيتهم ، ولما كان الرسول ﷺ أعلى مثل فى كل صفاته الخلقية والسلوكية ، كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم [٣] وبذلك وصفه الله بقوله (**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم**) [٤] ، لقد كان نبينا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس وأسمى الناس وكان من تواضعه أن يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم فى مهنة أهله وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد ، ويصفه بعض أصحابه بأنه أشد حياء من العذراء فى خدرها [٥] ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها وكان زاهدا فى الدنيا لم يشبع من خبز بر "قمح" ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثارا للمسلمين على نفسه لا فقرا ولا بخلا ، وكان يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ، وكان

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب كان الرسول ﷺ أحسن الناس خلقا ص ١٢٦٥ ط١٩١٤ دار المفتى .

(٢) سورة الجمعة الآية ٢ .

(٣) بتصرف الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبد الرحمن الميدانى ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ط ١٩٧٨ دار القلم .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٥) كتاب الأدب من صحيح البخارى باب الحياء ص ١١٤ ط ١٩٩٨ دار الكتب العلمية .

يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، وكان أرأف الناس بالناس " [٢] .

خامسا : ارتباط الأخلاق بالدين ومكانته فى الإسلام

إن الأخلاق التى هى سلوك وسجايا وطبائع وهيئات تتعلق بالإنسان إذا حسنت واستقامت وصلحت فى كل ما يصدر عن صاحبها من أقوال أو أفعال كانت دليلا واضحا وبرهانا ساطعا على قوة الإيمان وعلى سلامة الوجدان وعلى صدق التقيد بما يرضى الخالق عز وجل .

والأخلاق الكريمة هى ثمرة الإيمان القوى الصادق وأما الأخلاق السيئة فهى وليدة ضعف الإيمان .

وقد حضت الشريعة الإسلامية أتباعها على التمسك بالأخلاق الفاضلة وحذرتهم من الوقوع والاقتراب من رذائلها ، وبينت لهم أن حسن الخلق يرفع صاحبه إلى أعلى الدرجات على حين يهوى سوء الخلق بصاحبه إلى أسفل الدرجات .

وتأتى الأخلاق عن طريق الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة والسلوك الحميد .

ارتباط الأخلاق بالدين [٢] :

ومن تأمل مقاصد الأوامر والنواهى الدينية وتغلغل فى أسرارها عرف أنها ترمى إلى غرض واحد هو طهارة النفس وكمالها الإنسانى الذى تسعد به فى الدنيا والآخرة فى قوله تعالى (**والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**) [٣] تجد أن فلاح الإنسان منوط بسلامة عقيدته وصلاح أعماله ومتانة أخلاقه وقال ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثته الشريفة وأثار الاهتمام بالأخلاق بقوله "أثقل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن" وقال الحكماء (إن اعتدال الأخلاق فى الإنسان قد يكون السبب وحده فى سعادته) .

---

(١) الحكمة النبوية لـ عفيف طبارة ص ٧٠ ، ٧١ دار العلم للملايين .

(٢) الخلق الكامل محمد المول ٣/١ .

(٣) سورة العصر .

فالدين والأخلاق حقيقتان متلازمتان لا تنفصلان فى جميع الأديان على مر العصور ، فالدين لا قيام له دون أخلاق يتخلق به المتدينون [١] ، فإذا رجعنا إلى أقدم الحضارات وهى حضارة قدماء المصريين ، الذين أمنوا بخلود الروح والبعث والحساب والعقاب ، نرى مدى تلازم الدين والأخلاق عندهم فالكتابات المسجلة على جدران المعابد بها الكثير من قواعد السلوك التى تعتبر هداية إلى الخير وميزانا للعمل الصالح وتؤكد على تلازم الدين وصلته بالخلق [٢] وذلك لأن "المجتمع بغير دين مجتمع غابة وإن لمعت فيه بوارق الحضارة ، الحياة والبقاء للأشد والأقوى للأفضل والأتقى مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخرف بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم [٣] .

فالأخلاق جزء لا يتجزأ من الدين فهما متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر فلا توجد أخلاق بغير دين ، والعكس صحيح ، ويعبر عن هذا الارتباط الوثيق بين الدين والأخلاق علماء الغرب ، يقول الفيلسوف الألمانى "شباخت" "الأخلاق من غير دين عبث" ويقول الفيلسوف "كانت" "إنه لا وجود للأخلاق دون اعتقادات ثلاثة هى : وجود الإله ، وخلود الروح ، والحساب بعد الموت" .

ويقول الزعيم الهندى "غاندى" "إن الدين ومكارم الأخلاق هما شرح واحد لا يقبلان الانفصال ولا يفترقان بعضهما عن بعض فهما وحدة لا يتجزأ ، إن الدين كالروح للأخلاق والأخلاق كالجو للروح ، وبعبارة أخرى إن الدين يغذى الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذى الزرع وينميه" [٤] .

ومن ثم اهتم الإسلام بمكارم الأخلاق وجعلها تمثل ثلث تعاليم الدين ، فقد دعا إلى ضرورة تحلى المسلم بالصدق والأمانة والوفاء والوقار واعتبر هذه الصفات الأربع أخص آيات المؤمن ودعا إلى التخلى عن مساوئ الأخلاق واعتبر الإسلام سوالب الصفات السابقة أخص صفات المنافق .

وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على أن ترك جميع المنكرات فرض لازم وواجب محتم ، وأما فعل الطاعات فللمفروض

---

(١) التربية فى الإسلام د. أحمد فؤاد الأهوانى ٩٥ ط الثانية .

(٢) الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوى . ٤٧ مؤسسة الرسالة .

(٣) العقيدة والأخلاق نخبة من قسم العقيدة بكلية أصول الدين بحث الأخلاق د. سلمى حجازى ٢٣٦ .

(٤) الإيمان والحياة ١٧٦ .

منها فعل القدر المستطاع الذى أوجبته الشريعة لأن الفرض هو ما اقترن الأمر به بالوعيد على تركه [١] .

ومن هنا كان لابد من الدين بوصفه دعامة للشئون الأخلاقية ، لأنه الوسيلة الوحيدة التي تخرج عن نطاق المنطق الضرورى هو وحده الذى يتجاوز رقابة القانون وحراسة الرأى العام لأنه فى الواقع رقابة الذات لذاتها والنفس لنفسها ، ولأنه أيضا هو الذى يضفى على النظام الخلقى صفة القدسية ويكسبه عظمة الإيمان وجلال العقيدة ، ويسمو به عن متناول الشك وتخبط العقول ، ويخلق فى نفس كل امرئ وازعا داخليا غير الضمير يسيطر على كل خلجة من خلجات فكره . ويوجه كل حركة من حركات جسمه ويجعله يستشعر الخوف من خالقه ذلك الخالق الذى يحاسبه على عقائده وأفكاره كما يحاسبه على أعماله وسلوكه [٢] .

والفيلسوف الإنجليزى هوبز يعتبر الدين مصدر التشريع الخلقى ، وأن الفعل الحقيقى يعتبر خيرا لأن الله يريده ، وبذلك يتفق مع الإرادة الإلهية [٣] .

إن الأخلاق فى المنهج الإسلامى وثيقة الصلة بالدين لدرجة عظيمة تبلغ حد التوحيد بينهما فلفظ الإسلام مشتق من السلام والتحية والأمن والإخلاص والدين وسيلة لتكوين الخلق وقد جاء فى السنة المطهرة ما يؤكد الصلة بين الأخلاق والعقيدة فقد قال ﷺ "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له" [٤] فالإيمان يورث الأخلاق الفاضلة ، فمن فقد هذه الخصال الحسنة كان دليلا على ضعف إيمانه أو خلوه من الإيمان ، والأخلاق السيئة دليل على عدم الإيمان ، والإسلام جاء لينقل البشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب وإنه اعتبر الحياة المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صحيح رسالته كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجا عليه وابتعادا عنه .

وقد رسم الإسلام للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسير عليه الإنسان فالإسلام يفصل الكلام فى المسائل الخلقية التى تناولها القدماء والمحدثون وفيه بيان عن الأصل الأخلاقى للسلوك

---

(١) النظم والثقافة الإسلامية د . مصطفى حميدة ٥٣ ط أولى ١٩٩٠ مطبعة الحسين الإسلامية .

(٢) الإسلام نظام إنسانى د. مصطفى الرفاعى ٦٦ .

(٣) التربية فى الإسلام د. أحمد فؤاد الأهوانى ٩٥ وما بعدها ط الثانية .

(٤) الترهيب والترغيب ٣/٤ .

الأنسانى كما أن فيه بيان البواعث الخلقية وهو ينظر فى الحكم الأخلاقى وفى الغاية من الفعل الخلقى .

وقد حوى الإسلام على عددا من الفضائل وحث أتباعه على التمسك بها وحدة واحدة ، ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة فى التحلى بالأخلاق الحميدة لخرجنا بسفر لا يعرف مثله لعظيم من أئمة الإصلاح .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وهو الأصل الذى يستند إليه دين الإسلام نرى أن الجانب الخلقى يشكل جزءا بارزا منه فكم من آية قرآنية دعت إلى التحلى بالصفات الأخلاقية السامية وحثت عليه ومنها قال تعالى **(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط)** [١] وقوله تعالى **(كلوا واشربوا ولا تسرفوا)** [٢] وأيضا قوله **(فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسبغة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة)** [٣] وفى القرآن الكريم من الآيات التى تدعو إلى التمسك بالأخلاق القويمة والبعد عن الرذائل وقد وعد المسلمين الذين يتحلون بحسن الخلق بنعيم الجنة وتكفيرا لسيئاتهم مما يؤكد على مكانة الأخلاق عند الإسلام .

وقد ربط الرسول الكريم ﷺ الخلق القويم بالإيمان الحق والعبادة الصحيحة وجعله أساس الصلاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة، وقد ظل طوال بعثته مستمرا على إرشاد متصل ونصائح متتابعة وذلك ليرسخ فى الأفئدة والأفكار ، أن الإيمان والصلاح والأخلاق عناصر متلازمة متماسكة لا يستطيع أحد تمزيق عراها[٤]، فمن يؤمن برب العالمين ثم لا يتحرى الفضيلة فى حياته ولا يتجنب الرذيلة فى سلوكه فإنه يناقض نفسه [٥] .

وفى سنة الرسول ﷺ الكثير من الأحاديث والأفعال التى تؤكد على مكانة الأخلاق فى الإسلام وقد سئل الرسول ﷺ أى المؤمنين أكمل إيمانا ؟ قال : أحسنهم خلقا وأيضا يقول الرسول ﷺ "ما من شيئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن إن الله يكره الفاحش البذئ وأن صاحب حسن الخلق ليبلغ درجة صاحب الصوم

---

(١) الإسراء آية ٢٩ .

(٢) الأعراف آية جزء آية ٣١ .

(٣) البلد آية ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

(٤) التربية فى الإسلام د. أحمد فؤاد الأهوانى ٩٧ ، ٩٨ الصفة الثانية .

(٥) الإسلام نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى ٤٦ .

والصلاة" وقال "ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة؟ قالوا نعم يا رسول الله قال : أحسنكم خلقا ، وقال إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل وأنه لضعيف العبادة وأنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل الدرجات فى جهنم [١] .

إن رسول الله ﷺ دعا إلى عبادات شتى وأقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين فإذا كان مع سعة دينه وتشعب نواحى العمل أمام إتباعه يخبرهم بأن أرجح ما فى موازينهم يوم الحساب هو الخلق الحسن فإن دلالة ذلك على منزلة الخلق فى الإسلام لا تخفى .

وقد اعترف أحد فلاسفة الغرب ويدعى جولد زيهير على سمو الأخلاق عند الإسلام حين قال : إذا أردنا الإنصاف فينبغى أن نؤمن بأن فى مذهب الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير وإن الحياة المتفقة مع تعاليم الإسلام حياة أخلاقية لا غبار عليها ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله والوفاء بالعهود ، والمحبة ، والإخلاص ، وكف غرائز الأنانية ، وأضف إلى ذلك الفضائل الذى أخذها الإسلام من الديانات التى اعترف لأصحابها بالرسالة ، المسلم الصالح هو ذلك الذى يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية [٢] .

فعندما ندرس الإسلام من جميع جوانبه نجد أن نظامه قد وضع لمصلحة الإنسان وسعادته لا فى الحياة الدنيا فقط بل فى الحياة الآخرة أيضا كما نجد أيضا أن حقيقة السعادة فى هذه الحياة هى الشعور والإحساس الدائم للإنسان بخيرية الذات وخيرية المصير الذى ينتظره .

وإذا كان هدف الأخلاق فى الإسلام هو السعادة فإن هذا لا يعنى أنه يقول بمذهب السعادة فى نظر الإسلام تختلف من حيث الزمان والمكان ومن حياة إلى حياة أخرى حيث السعادة فى رأى الفلاسفة إذ مفهوم السعادة فى الإسلام مفهوم خاص فالسعادة فى الحياة الدنيا تختلف عن سعادة الحياة الأخرى كما أن الإسلام يستهدف تحقيق السعادة فى الحياة الأخرى أكثر مما يستهدفها فى الحياة الدنيا ويضاف إلى هذا الحد أيضا أن السعادة التى أرادها الإسلام ليست على جانب واحد فقط وإنما تشمل الجوانب الروحية والعقلية والنفسية

---

(١)

(٢) أنظر التربية فى الإسلام د. أحمد فؤاد الأهوانى ٩٩،١٠١ ، وخلق المسلم لفضيلة الشيخ محمد الغزالى ١١ ، ١٣ ط الثانية .

والمادية فى الإنسان وبطبيعة الحال كلما كان هناك اتساق بين هذه الجوانب كلما زاد نطاق السعادة كما وكيفا .

غير أنه يجب أن نلفت النظر إلى أن الأخلاق فى نظر الإسلام وإن كانت ترمى إلى تحقيق السعادة للإنسان فإن هذا الهدف هدف الأخلاق لا هدف الذات الفاعلة فإن هدف الذات ينبغى ألا ينحصر فى تحقيق الإنسان السعادة لنفسه أو لغيره وإنما ينبغى أن يكون هدفه الأول هو الله وحده أنه يجب أن يؤدى الأعمال الأخلاقية لأنه مأمور بها من قبل خالقه ، وأن يقصد بها وجهه لا وجه أحد ، ولا وجه السعادة أو تحقيق السعادة .

الإلزام الخلقى

يعد الإلزام الخلقى حجر الزاوية فى الفلسفة الخلقية الحقه إذ بدون الإلزام لن تكون هناك مسئولية ، وبدون مسئولية لا توجد عدالة، وبدون عدالة تنتشر الفوضى وتسود الهمجية ويفسد النظام ، فلا يمكن أن نتصور مبدأ أو قاعدة أخلاقية بدون إلزام .

والإلزام هو السلطة الآمرة والقوة القاهرة والضرورة التى يستشعرها كل فرد ، فيعمل ما ينبغى عمله دون قسر أو إرغام ، آخذا نفسه بما يمليه عليه القانون الأخلاقى [١] .

إن القيمة الأخلاقية تستبطن دائما عنصرا إلزاميا ، لأن النفس الإنسانية جبلت على الإحساس بالخير والشر والقانون الذى يصوغه الإنسان لتنظيم أمر حيانى معين قد يرغم الناس على الالتزام به لكنه لا يستطيع أن يلزمهم إلزاما أخلاقيا ، ومتى ما يصبح الإلزام قهرا فإنه يفقد بذلك صفته الأخلاقية ، إن القرآن يقف بحزم أمام عدوين من أعداء النفس الإنسانية الخيرة هما : هوى النفس والانقياد الأعمى الذى لا يهدى الإنسان إلى الحق وإن الإنسان لا يرتكب ذنبا إذا أخطأ لسهو أو نسيان ، ولكن الذنب يسجل على الإنسان عندما ينشئ تصميما لارتكاب الذنب والمعصية . والقرآن يرد جميع مصادر الشرع إلى الله سبحانه ، فالمولى هو مصدر الإلزام فى الدرجة الأولى فلا أحد يستطيع أن يعلم جوهر النفس الإنسانية غير خالقها وبارئها وهو الله .

وقد أكد القرآن على أن الأحكام الشرعية الصادرة من المولى عز وجل مرتبطة أساسا بالقيمة الأخلاقية كقانون الحياء الذى يطلب

---

(١) الأخلاق فى الإسلام بين النظرية والتطبيق د. محفوظ على عزام مؤسسة دار الشعب بالقاهرة .

من الرجال والنساء غض البصر وحفظ الفروج ، والأمر بإيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم والصبر والتقوى ، وعفة الإنسان الذى لا يقدر على تكاليف الزواج ، وكتابة الدين وغيرها [١] .

بل إن القرآن قد استكمل طرق الإلزام حين عددها ونوعها وفصلها وسلطها أول ما سلطها على عقل المؤمن ، ثم على قلبه وضميره ونفسه وغرائزه وطباعه وجسده فانتزع الدواء من مكمن الداء واستثار القوة من مركز الضعف وشمل بهذا الإلزام الكبار والصغار ، والأخلاق والآداب ، وفصل أبواب الترهيب والترغيب فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة وجعل الفرد رقيبا على نفسه والمجتمع ، وجعل المجتمع رقيبا على الفرد ، وأعد المسلم لمعركة الحق ، فتمت بهذا استكمال طرق الإلزام ، كلمة ربك صدقا وعدلا وعلما ورحمة وإحسانا [٢] .

والإلزام الخلقى فى الإسلام يشترط فيه أن يكون فى استطاعة المكلف ، قال تعالى **(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)** [٣] ، والإلزام الخلقى ضرورة للبناء الأخلاقى بصفة عامة .

لقد عنى الفلاسفة مثل سقراط وأفلاطون فى العصور القديمة ، والغزالى والراغب الأصفهانى والمعتزلة والأشاعرة فى العصور الوسطى ومثل كانت ولينتز وجون ستيوارت ودور كايم وغيرهم فى العصور الحديثة لقد اختلف الفلاسفة فى تفسير الإلزام الخلقى الذى يبين دوافع أو حوافز العمل الأخلاقى أهو استجابة لواجب نداء الضمير .

فالقرآن الكريم لا يعنى بالإلزام الانسياق الغريزى الأعمى للعمل الأخلاقى فقد وضع الله سبحانه وتعالى قواعد السلوك الأخلاقى الإنسانى وألزم بها فقال جل من قائل **(فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة)** [٤] لكيلا لا يضل الإنسان قال تعالى **(ألا له الحكم**

---

(١) الأخلاق القرآنية د. زهير الأعرض ٢١ ط دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٧ ببيروت لبنان .

(٢) القرآن فى التربية الإسلامية للشيخ نديم الجسر ١٠ . بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٧ .

وهو أسرع الحاسبين) [١] وعندما يضع الله قواعد السلوك فليس لأحد أن يعارض أو يجادل أو يقترح شيئا أخر قال تعالى **(والله يحكم لا معقب لحكمه)** [٢] فمن هذه الآيات الكريمة وكثير غيرها نجد إن الإلزام الإلهى المتمثل بالهدى لا يسلب الإنسان حريته ولا يتعارض مع اختياره ، لأن الإنسان يستطيع أن لا يلتزم ، وأن يختار وفق هواه الوجه الآخر للسلوك الوجه اللاأخلاقى ، الذى يختلف كلية عن الهدى فيضل قال تعالى **(ومن أضل ممن أتبع هواه)** [٣] .

فالإنسان مسئول أمام الله وهى المسئولية الدينية ومسئول أمام النفس وهى المسئولية الأخلاقية ومسئول أمام الناس وهى المسئولية الاجتماعية وطالما أن الله مصدر إلزام فهو فى نفس الوقت مصدر المسئولية والجزاء .

مصادر الإلزام

الإلزام هو السلطة المعنوية التى تأمر بالخير ، وتنهانا عن الشر والتى فى ضوئها تحكم على أفعالنا بالحسن أو القبح ، وفكرة الإلزام هذه هى العنصر أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية ، وزوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العقلية والعملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ، وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه ، وإقامة أسس العدالة وحينئذ تعم الفوضى ويسود الاضطراب [٤] وقد اختلف فلاسفة الأخلاق فى تحديد مصدر الإلزام فمن قائل أن مصدر الإلزام ، هو الجماعة ومن قائل إنه الدين ومن قائل إنه العقل ، ومن قائل أنه الوجدان . إلى غير ذلك [٥] .

أما مصدر الإلزام الخلقى فى الإسلام هو الوحى الإلهى ، فالحسن ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشرع .

المسئولية

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٢ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤٢ .

(٣) القصص آية ٥٠ .

(٤) الأخلاق بين الدين والفلسفة وعلم الاجتماع ص ٦٧ د. السيد محمد بدوى ط دار المعارف ، وانظر د. أحمد الصاجوت ١٩٩٣ فى الثقافة الإسلامية .

(٥) أنظر المصدر السابق .

أما المسئولية فهى الاستعداد الفطرى ، والقدرة بأن يلزم المرء نفسه أولا ، وأن يفى بالتزامه ثانيا ، فعندما يؤدى الإنسان عملا ما لابد أن يقدم ملفه وحساباته لصاحب العمل ليجاز به على عمله وهذه فكرة الجزاء .

إن الله سبحانه وتعالى يحدد المسئولية العامة للإنسانية ومن خلال تحديد الأمانة التى عرضها على الإنسان فحملها وهى الولاية الإلهية التى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها لعدم اشتمالها على صلاحية التكليف .

ارتباط الأخلاق بالمسئولية

لقد اعتنى الإسلام عناية كبيرة بالإعداد الخلقى للإنسان ، وجعله هدفا أساسيا من أهدافه التى يسعى إليها فحمل الإنسان مسئولية أفعاله ، وربط الإسلام بين القيم الأخلاقية والمسئولية برباط وثيق يثير فى نفوس المؤمنين شدة الخوف من كل خروج على أحكام الفضيلة والأخلاق كما أمر بها الله ويدفع فى الوقت نفسه عن المجتمع الشرور التى قد تحدث نتيجة هذا الخروج [١] .

فعندما دعا القرآن الإنسان إلى التحلى بمكارم الأخلاق ذكر الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى سيحاسب الإنسان وحده عما يصدر عنه من أعمال كما فى قوله تعالى **(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)** [٢] .

كما ربط الفعل المنهى عنه برادع دينى يتمثل فى التحذير بتوقيع العقوبة الأخروية على مرتكبه .. والتصرفات التى من هذا القبيل هى الرذائل التى لا يمكن ضبطها بمظاهر محددة كالغيبة والنميمة والحسد والحقد والكذب وغير ذلك مما يتصل بالجانب الخلقى أكثر من اتصاله بالجانب العملى أو تكون متصلة كثيرا بالجانب العملى ولكن لم يأخذ الصورة القصوى من صور السلوك الإجرامى، فمثل هذه التصرفات تقتصر فيها الشرعية على التحذير بالعقوبة الأخروية ويكون الضمير الإنسانى هو المنوط وحده بتحديد مسئولية هذه الآثام فى الحياة الدنيا كما أن عليه وحده تقع مهمة محاسبة النفس والرجوع إلى الحق .. لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .. وقد جاءت التوبة والاستغفار والندم . وسيلة لتطهير النفس من الإثم فى قوله تعالى **(والذين إذا فعلوا فاحشة أو**

---

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام د. الفار ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) سورة الحجرات الآية ٩٣ .

ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) [١] .

فهذه الفضائل والأخلاق لا يرقى الإنسان فى اكتسابها إلا بأمرين الأول محاسبة النفس ومراقبتها من حين لآخر فى أى فضيلة ارتقت وفى أيتها ضعفت الأمر الثانى : هى الإرادة المسيطرة على النفس الإنسانية حتى تستقيم حركته وهذا ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من قوة الإرادة فى توجيه النفس إلى الخير والصلاح .

وقد أسهب علماء السلف فى تفصيل منهج الإسلام فى محاسبة النفس ومراقبتها وفق ما جاء فى الكتاب والسنة وأشاروا فى ذلك إلى أن مناط الأمر فى الاستقامة وصلاح النفس متعلق بشعور الإنسان بخطر حسابه عند ربه فى الآخرة ويقول الإمام ابن قدامة فى ذلك "وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة فمن حاسب نفسه فى الدنيا خف فى القيامة حسابه وحسن منقلبه ومن أهمل المحاسبة دامت حسرته" [٢] .

كما أكد القرآن أن الإنسان لا يتحمل مسئولية غيره قال تعالى **(ولا تزر وازرة وزر أخرى)** [٣] .

الجـــزاء

وإذا كان الإنسان فى المنهج الإسلامى مسئولا عما اكتسب من الأفعال فقد جاء المبدأ الثانى للربط بين المسئولية والجزاء على العمل إن خيرا فخير وإن شرا فشرا ، وذلك نتيجة طبيعية للمسئولية الأخلاقية كما أنه لازم لتحقيق العدالة .

والجزاء الأخلاقى نتيجة طبيعة للمسئولية الأخلاقية كما أنه لازم لتحقيق العدالة بين الناس إذ شتان بين إنسان يسعى بين الناس بالفضيلة وإنسان يؤذيهم بالرذيلة ، فلابد أن يلقى كل منهما جزاء فعله، وإذا كان هناك جزاء لكل سلوك أخلاقى كان هناك تمسك بالأخلاق والفضائل [٤] .

---

(١) أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام د. عبد الواحد الفار ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ، وانظر مختصر مناهج القاصد للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة والذى اختصر فيه كتاب مناهج القاصدين لابن الجوزيه ٣٨٩ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٦٤ .

(٤) الأخلاق فى الإسلام بين النظرية والتطبيق د. محفوظ على عزام .

والجزاء على الأعمال ركيزة أساسية فى التربية الخلقية التى جاء بها الإسلام ، فسؤال الإنسان ومحاسبته فى الدنيا لتقدم الجزاء ، وكشف حساب بأعماله فى الحياة الآخرة .

والقرآن الكريم إذ يؤكد المسئولية الآجلة المختلفة للإنسان فيقول **(ولا تكسب كل نفس إلا عليها)** [١] فانه يؤكد أن الجزاء لا يقع إلا على المسئول ، لذلك كان من الركائز الأساسية للأخلاق الإسلامية هو الربط بين الفعل والربط بين الأخلاق والمسئولية فالجزاء على الأعمال التى اكتسبها الإنسان نتيجة إرادته الاختيارية تحقيقه للعدالة الإلهية .

فكلنا نرى فى هذه الحياة الدنيا أشخاصا يرتكبون جميع الجرائم ويفعلون جميع الموبقات ولا يعاقبون جزاء أعمالهم فى الدنيا ويفلتون من العقاب الدنيوى .

وأخرون تقع عليهم جميع المظالم والشرور والآثام من الأخرين دون أن ينالوا حقوقهم ودون أن يقع القصاص الذى يرد الحقوق إلى أصحابها ، وأخرون يضحون بأغلى ما يملكون فى سبيل العقيدة والدين والمبادئ والقيم الأخلاقية الفاضلة دون أن يحصل كل هؤلاء على حقوقهم المسلوبة وتضحياتهم المبذولة .

"وكم من قوم دعوا إلى الحق واستمسكوا به ودافعوا عنه فوقف الظالمون فى طريقهم وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا وسقطوا صرعى فى سبيله وأعداؤهم الطغاة فى أمن وعافية بل فى ترف ونعيم فى الدنيا .

لذلك كان الجزاء الأخروى ضروريا للبناء الخلقى وهى المعضلة التى عجزت المذاهب الوضعية عن حلها [٢] .

أما فى الإسلام فقد حمل الإنسان مسئولية أفعاله الاختيارية ورتب عليها الجزاء والثواب عليه أو العقاب وهذا الجزاء على السلوك الإنسانى على الأعمال قد قننها العزيز الحكيم فجعل الجزاء على الأعمال قسمان :

الجزاء الدنيوى

قال تعالى **(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرى ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرى)** [١] قال تعالى **(ظهر الفساد فى البر والبحر بما**

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٤ .

(٢) الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوى ٣٤ .

كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) [٢] وقال تعالى **(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكلا من الله والله عزيز حكيم)** [٣] .

إن مناط الأمر فى استقامة وصلاح النفس متعلق بشعور الإنسان بخطر حسابه عند ربه فى الأخرة فتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة فمن حاسب نفسه فى الدنيا خف فى القيامة حسابه وحسن منقلبه ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله بالصبر والمراقبة فقال **(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا)** [٤] فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم المراقبة ثم المحاسبة ثم المعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاينة فكانت لهم المرابطة من مقامات وأصلها المحاسبة ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة [٥] .

الجزاء الدنيوى فى الإسلام نوعان فجزاء أصحاب الفضائل المتمسكون بمكارم الأخلاق فقد وردت به آيات القرآن الكريم كما فى قوله تعالى **(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيواة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)** [٦] وقوله تعالى **(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)** [٧] وقوله تعالى **(ومن يتق الله يجعل له مخرجا)** [٨] أما فى الآخرة فجنة ونعيما وملكا كبيرة ورضوان من الله أكبر . قال تعالى "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات" [٩] أما جزاء الأشرار فى الدنيا فقال تعالى "**ضرب الله مثلا قرية كانت أمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما**

---

(١) الزلزلة آية ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الروم آية ٤١ .

(٣) سورة المائدة الآية ٣٨ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٠٠ .

(٥) مختصر مناهج القاصدين لابن قدامة المقدس ٣٨٩ .

(٦) سورة النحل الآية ٩٧ .

(٧) سورة الأعراف الآية ٩٦ .

(٨) سورة الطلاق الآية ٢ .

(٩) سورة التوبة الآية ٧٢ .

فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجـــوع والخـــوف بمـــا كـــانوا يضعون" [١]

أما فى الآخرة فقال : **" إن اعتدنا للظالمين نارا أحـــاط بـــهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل بشـــوى الوجـــوه بئـــس الشراب وساءت مرتفقا)** [٢] .

---

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

المبحث الرابع
وسائل المحافظة على الأخلاق

إن الله سبحانه وتعالى ما أرسل من رسل ولا أنزل من كتبـــه ولا كلف الناس بالشرائع إلا لإحقاق الحق وإرشاد الخلـــق إلـــى مـــا يصلحهم من قواعد المعاملات وآداب السلوك وتهذيب النفوس ومن ثم فقد أرسل الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لإخراج الناس مـــن الظلمات إلى النور وذلك بهدايتهم إلى الحق من العقائد وإلى الخـــير من السلوك والمعاملات فهم يأتون للناس بما شـــرعه الله لـــهم مـــن الحدود وقواعد المعاملات بينهم كحدود المحافظة على النفس والعقـــل والعرض والمال والنسب وتنظيم العلاقة بيـــن الحـــاكم والمحكـــوم والزوج والزوجة وكل راع مسئول عن رعيته .

كما يدعون البشر إلى تقويم أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعهود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفـــاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لكل مخلـــوق بحقـــه بـــلا استثناء والنصوص المقدسة من الكتاب والسنة فياضة بهذا الجـــانب التشرعى والأخلاقى فى رسالة الأنبياء عليهم السلام [١] .

قال تعالى **(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشـــركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذالكم وصاكم به لعلكم تعقلـــون ولا تقربـــوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتـــى يبلـــغ أشـــده وأوفـــوا الكيـــل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذالكم وصاكم به لعلكم تذكـــرون وأن هـــذا صراطى مستقيما فاتبعوه السبل فتفرق بكم عن سبيلى ذالكم وصـــلكم به لعلكم تتقون)** [٢] وبهذا يقوم المجتمع الإسلامى على القيم الإنسانية الرفيعة التى تتطلع إليها البشرية الراقية والقيم الإنسانية هى تلك التى تقوم على احترام كرامة الإنسان وحريته وحرماته وحقوقه وصيانـــة

---

(١) انظر ملامح المجتمع الذى تنشده أ.د. يوسف القرضاوى ١٠٩ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ١٥١ – ١٥٣ .

دمه وعرضه وماله وعقله ونسله بوصفه إنسانا وعضوا فى المجتمع [١] .

ومن هنا فكل ما جاء به الإسلام من أحكام وتشريعات يهدف إلى حفظ كيان الإنسان وإقامة مجتمع فاضل آمن مطمئن سعيد تسود فيه المحبة والأخوة والمساواة وترفرف عليه ألوية التعاطف والتراحم والتعاون على البر والتقوى وينعم أفراده بالسلم والمحبة والإيثار وبطاعة الله ورضوانه ، مجتمع تختفى منه الأحقاد والحسد والأضغان والعداوة والشحناء والتعاون على الإثم والعدوان والتعاظم والاستغلال وكل ما يدعو إلى الغلظة والجفوة والكراهية والنفور .

مجتمع يذكرنا بأننا جميعا أبناء أب واحد وأم واحدة لا تفاخر فيه ولا تميز إلا بالتقوى والعمل الصالح ، مجتمع يحب فيه كل منا لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره ما يكره لنفسه ويكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد به بعضا وتحقيقا لهذه الصورة الأخلاقية السامية .

فقد قرر الإسلام حقوق الإنسان قبل أن تعرفها النظم والمواثيق الأخرى حينما "قام بمحاولة جريئة حين دعا إلى هذه الحقوق وجعلها دستورا للحياة وقانونا يوجب الطاعة والاتباع" [٢] وذلك بما دعا إليه من قيم وأخلاق ملزمة للتعامل بعضهم بعضا على أساس الحق والعدل والمساواة والأخوة . ومن أجل ذلك جاء الإسلام بمنهج كامل شامل متعدد الوسائل والأساليب للمحافظة على الأخلاق التى هى الركيزة الأساسية لحفظ كرامة الإنسان وصيانة حقوقه وإنسانيته بهدف إسعاد الإنسان وتحريره وحمايته والسمو به وفيما يلى أهم وسائل للمحافظة على الأخلاق :

أولا : الجانب التربوى فى الشريعة الإسلامية

الشريعة الإسلامية لها جانب تربوى يتضح فى تعرضها للتربية عن طريق الترغيب والترهيب أو أخذ العبرة من التاريخ أو الحض على التقوى ومخافة الله ولذلك نجد كثيرا من الأحكام يعللها القرآن فى كثير من مواضعه بـ **(لعلكم تتقون)** [٣] ، أو يبدأ أوامره

---

(١) أنظر فى العقيدة الإسلامية والأخلاق أ.د. محى الدين الصافى ، أ.د. صلاح عبد العليم رحمه الله تعالى ، أ.د. على معبد ، أ.د. محمد عبد الفضيل ١٠٤ ، ١١٨ سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م .

(٢) الإسلام نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى ٤٦ منشورات دار مكتبة الحياة .

(٣) الأنعام آية ١٥٣ .

ونواهيه بقوله **(يا أيها الناس اتقوا ربكم)** [١] ، **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله)** [٢] .

وذلك لأن للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية وهى الأساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يميد ولا يخضع للأهواء والمقاييس العامة التى تتحول وتتغير هى المركز الذى تلتف الفضائل حوله ويرنو إليه كل فرد برغبته وبرهبة ويدور فى محيطه سواء أحقق له نفعا عاجلا أم لم يحقق بل أنه يدور من حوله منجذبا إليه وإن كان دورانه ضرر محقق يمسه فى نفسه أو فى ماله أو فى رغبة من رغباته ، وما من شك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ويطيعه ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ويكف عما ينزل بعقابه وينفر من كل شر ولن يكون التقى وهو يعلم بأن الإسلام هو ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها ، إلا كريما شجاعا عادلا أمينا عفيفا صادقا وفيا رحيما غيورا متحليا بكل فضيلة وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم منها أمر صريح بالتقوى ثلاثا وثمانين ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات وكلمة الأتقى مرتين .

ونستطيع أن نستنبط للتقوى معانى جزئية تتصل بها فضائل معينة ، كما نجدها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها :

- فالكرم متصل بها فى قوله تعالى **(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)** [٣] .
- والشجاعة متصلة بها فى قوله تعالى **(فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيواة الدنيا بالأخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما)** [٤] .

فقد كان المسلمون فى مكة منهيين عن مقاتلة الكفار ، وكانوا يتمنون أن بأن الله لهم فيه فلما فرض عليهم القتال بالمدينة تردد فريق منهم ، لا عن شك فى الدين ولكن عن الخوف من الحرب والموت ولكن الله بشرهم بأن الآخرة خير للأتقياء الشجعان ، وبأن الموت لابد أن يدرك كل حى فقد أمرهم الله تعالى بالصبر على الدين وتكاليفه أو

---

(١) النساء آية ١ .

(٢) الأحزاب آية ٧٠ .

(٣) سورة الليل الآية ٥ : ٧ .

(٤) سورة النساء الآية ٧٤ .

بالصبر على الشدائد وبمغالبة أعداء الله فى الصبر على أهوال الحرب .

- والعدل مرتبط بالتقوى فى قوله تعالى **(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)** [١] .
- والعفة ذات علاقة بها فى قوله تعالى **(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا)** [٢] .
- وللصدق صلة بها فى قوله تعالى **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)** [٣] .
- والوفاء بالعهد صلة بها فى قوله تعالى **(فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيئ عليما)** [٤] .
- والرحمة غصن من دوحتها فى قوله تعالى **(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا)** [٥] .
- والعفو جزء منها فى قوله تعالى **(وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله)** [٦] .
- والصبر جانب من جوانبها فى قوله تعالى **(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)** [٧] .
- والأمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى **(فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه)** [٨] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٢ .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٤) سورة الفتح الآية ٢٦ .

(٥) سورة النساء الآية ٩ .

(٦) سورة الشورى الآية ٤٠ .

(٧) سورة النحل الآية ١٣٦ .

(٨) سورة البقرة الآية ٢٨٣ .

- وقوة العزيمة ومضاء الإرادة مظهر من مظاهر التقوى فى وقوله تعالى **(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)** [١] .
- وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى فى قوله تعالى **(فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه)** [٢] .

فلا ريب إن التقوى والورع هما عاملان أساسيان فى تهذيب أخلاق الإنسان وتنوير أفكاره ولكن ليس الورع والتقوى هما فى إظهار التنسك والأعراض عن شئون الحياة وعدم الاهتمام بأمور الدنيا والتجنب عن المجالس الاجتماعية الراقية والانصراف عن جميع ما أحل الله من الملذات إن الدين الإسلامى لم يأمر بالتقشف والتنسك والجلوس فى البيت بل أمر بالسعى والجد والاجتهاد .

فالتقوى هى الفضيلة التى أراد بها القرآن إحكام ما بين الإنسان والخلق وإحكام ما بين الإنسان والخلق وإحكام ما بين الإنسان وخالقه ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها فى أكثر آيات القرآن الأخلاقية والاجتماعية والمراد بها أن يتقى الإنسان ما يغضب ربه وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره .

فالتقوى فى أصل معناها جعل النفس فى وقاية لا تجعل النفس فى وقاية بالنسبة لما يخاف فخوف الله اصلها ، والخوف يستدعى العلم بالمخوف ومن هنا كان الذى يعلم الله هو الذى يخشاه وكان الذى يخشاه هو الذى يتقيه ، فالمتقون هم الذين يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه فى الدنيا والآخرة وذلك بالوقوف عند حدوده وامتثاله أوامره واجتناب نواهيه وهو لا يأمر إلا بما فيه خير للإنسانية ولا ينهى إلا عما يضرها .

لذلك عنى القرآن عناية كبرى وأكثر من الأمر وتوجيه النفس إليها وكانت له فى ذلك أساليب مختلفة أمر بتقوى الله **(يا أيها آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)** [٣] وذلك يكون بالتوجيه إلى الله وحده فى العبادة واجتناب ما يأباه من الشرك والخروج عن شرائعه وأحكامه العادلة هذا فضلا عن أن للشريعة

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٩٩ : ٢٠١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٣ ، تهذيب الأخلاق للإمام المحاسبى الحارث بن أسد تحقيق الشيخ عبد الفتاح عزة ١٩٦٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

جانب تطبيقى يتجلى فى الأمر والنهى ، والتحليل والتحريم والإباحة والحظر والحدود والعقوبات والقصاص والإرشاد إلى كيفيات وأساليب عملية أو تعاملية معينة فى البيع والزواج وسائر العقود وكثير من أمور الحياة فالشريعة الإسلامية نظمت حياة الفرد والمجتمع اجتماعيا وسياسيا كما يلى :

١ - الشريعة ضابط خلقى للفرد :

عندما تتمكن تعاليم الشريعة من نفس الفرد تصبح بمثابة ضابط خلقى يحاكم المرء نفسه إليه عندما يقف أمام أمور متشابهات كبعض أساليب البيع والشراء وذم الإنسان الذى يجاهر بالمعصية .. ونحو ذلك ، والضابط الخلقى هنا غير الوازع التربوى الدينى فالوازع يبعدك عن موضع المحرمات كليا ولكن الضابط هو الذى يقول لك بدقة هذه حدود المحرمات فلا تقترب منها .

والدافع الحقيقى لهذا الضابط هو الخوف من الله فلا يحاول المسلم أن يتهرب من الشرع أو يحتال عليه وهذه هى الميزة الأساسية التى تميز الشرع عن القانون وقد نظمت الشريعة حياة الفرد مع أسرته ومع الناس فى الاستئذان وإلقاء السلام ومعاملات البيع والشراء والزواج والطلاق والرضاع .. الخ .

٢ - الشريعة ضابط اجتماعى للمجتمع :

عندما يكثر تداول أحكام الشريعة على المستوى الاجتماعى فى حلقات الوعظ وخطب المنابر تصبح بعض هذه الأحكام أعرافا ومصطلحات اجتماعية فيحتقر المجتمع المرابى والسكير الفاسق والمجاهر بالمعاصى والمرأة المومس وكثير الكذب والمنافق والمتكبر وغير ذلك .

وقد ربى الإسلام هذه الفطرة الاجتماعية فنظم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحض على ذلك وجعل تركه من علامات انهيار المجتمع .

٣ - الشريعة ضابط سياسى للدولة :

عندما تتولى السلطة تنفيذ أوامر الشريعة تصبح تعاليم الشريعة سلوكا سياسيا تسلكه الدولة ومن جميع رعاياها فتقطع يد السارق وترجم الزانى وتمنع الخمر والتبرج والخلاعة والظلم والبغى بغير حق وتراقب الباعة فتمنع الغش والاحتكار وتنشر العلم وتحيط مؤسسات التعليم بعناية وتوجيهات دينية خاصة وترسل الدعاة إلى الله وترفع راية الإسلام وتوجه وسائل الأعلام توجيها إسلاميا .

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية تربى الناس بثلاث أساليب:

١- أسلوب تربوى نفسى ينبع من داخل النفس ضابطه الخوف من الله ومحبته ، وتطبيق شريعته اتقاء لغضبه وعذابه ورغبة فى ثوابه وهذا الأسلوب قد تخبو جذوته أحيانا عند بعض الناس أو يفقده من لم يتمكن الإيمان من قلبه فتسول له نفسه العبث بحرمات الإسلام ويطمع بالمال المحرم أو الشهوات المحرمة من كان فى قلبه مرض فتعالجه الشريعة بتطبيق الحدود الشرعية عليه .

٢ - التناصح الاجتماعى والتواصى بالحق والصبر فالمجتمع الغيور على شريعة الله وحرماته لا يدع منكرا ولا يقرعلى ترك أصل من أصول الإسلام كالصلاة والزكاة والصوم والجهاد بل يأمر المقصر ويأخذ بيده ليعينه على نفسه أو على تربية أولاده .

٣ - وازع السلطة التنفيذية أى الدولة المسلمة التى تنفذ أحكام الشريعة فيستتب الأمن ويسود سلطان الشرع وينعم الناس بعدل الشريعة .

وهذه الأساليب تتعاون على تحقيق المعانى الإسلامية وتطبيقها فى حياة الفرد والجماعة والدولة فتصبح هذه الحياة أقرب ما تكون إلى الكمال والسعادة والحضارة والرخاء والتكافل والطمأنينة والاستقامة [١] .

ثانيا : ارتباط الأخلاق بالعقيدة

ولما كان الإسلام هو الدين الحق الذى قام على دعائم العقيدة والشريعة والأخلاق دون فصل بينهما فقد أقام منهجا أخلاقيا لبناء الإنسان [٢] ، فالأخلاق الإسلامية وليدة العقيدة الإسلامية النقية المشرقة المؤثرة كما أنها أثر من أثار العبادة الحقة والعبودية الصادقة لله وحده [٣] .

---

(١) أنظر أصول التربية الإسلامية أ. عبد الرحمن النحلاوى ٨٢ . دار الفكر المعاصر - بيروت لبنان .

(٢) مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق أ.أنور الجندى ٥٥ ط أولى دار الاعتصام ١٩٧٧ .

(٣) الغزالى وفلسفته الأخلاقية والصوفية د. محمد البهى ٩ مطبعة وهبة القاهرة ط ١٤٠١ - ١٩٩٧ .

إن ديننا الإسلامى الحنيف قد ربط بين جانب العقيدة منه وبين الأخلاق التى ارتضاها لاتباعه ربطا وثيقا وذلك يبدو واضحا من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة فإن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون المؤمن ذا خلق محمود وإن الأخلاق السيئة دليل على عدم وجود الإيمان أو دليل على ضعفه وعلى ذلك يمكننا أن نعرف مدى إيمان الشخص بمقدار ما يتحلى به من مكارم الأخلاق ونعرف مدى ضعف إيمانه بمقدار ما يتصف به من ذميم الأخلاق[١].

إن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يتحلى المؤمن بالأخلاق الكريمة من الصدق والعدل والوفاء بالوعد والأمانة والعفو عند المقدرة وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوفاء بالوعد وحفظ العهد وقضاء حوائج الناس وإغاثة الملهوف ونصرة المظلومين والمساواة فى الحقوق والتسامح والحلم وحب الخير والبعد عن الشر .

كل هذه الفضائل الأخلاقية التى أمر بها القرآن الكريم جاء الأمر بها مقرونا بالإيمان بالله تعالى وعلى سبيل المثال عندما يطالب القرآن أتباعه بالعدل يذكر قبل الطلب وصف الإيمان للإشارة إلى أن الإيمان يقتضى العدل فيقول **(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)**[٢] ، وعندما يأمر الإسلام بالصدق يقول القرآن **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)**[٣] .

إن مقتضى الإيمان أن يكون المؤمن رحيما يقول عليه الصلاة والسلام " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا"[٤] .

وليس المقصود بالرحمة معنى ضيقا محدودا يشمل شخصا دون أخر أو جماعة دون أخرى أو جنسا دون غيره بل الرحمة بمعناها العام الذى يشمل كل مخلوقات الله تعالى ، عن أبى موسى ﷺ أنه سمع النبى ﷺ يقول " لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا يا رسول الله كلنا رحيم ، قال : ليس رحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة

---

(١) عقيدتنا أ.د. محمد ربيع جوهرى ٣٧ ط الثانية ١٤١٨ - ١٩٩٧دار الاعتصام .

(٢) سورة المائدة الآية ٨ .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٤) أخرجه الترمذى ك البر ب ما جاء فى رحمة الصبيان ٣٢٢/٤ .

العامة[١] ، وهكذا جميع مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك ارتبطت بالعقيدة ارتباطا وثيقا لما لها من أثر من حفظ حقوق الناس ونشر الأمن والاستقرار .

ويؤكد الرسول ﷺ الصلة بين الأخلاق والعقيدة فيقول ﷺ "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " لأن هذا الاعتقاد السامى ذو أثر فعال فى الجماعة الإنسانية وذو خطر كبير فى نموها وانتعاشها الفكرى[٢] .

فالإسلام الدين الوحيد الذى لم يفصل بين العقيدة والأخلاق فهما كالعروة الوثقى لا انفصام لها .

إن هذا النوع الفريد من الأخلاق حقيقة أكيدة لديمومة وبقاء الإنسان المهتدى لربه والمدرك لكرامته فى الوجود الخليق بأن يكون الإنسان الفذ القائد لكل خير صامدا للباطل ومقاوما للشر .

إن البرهان على صدق إسلام المرء هو العمل الصالح فكذلك بالنسبة لصحة أخلاق المرء فإنما تتمثل هذه الأخلاقية الصحيحة فى صحة عقيدته .

إن المسلمين فى عهودهم الزاهرة كانوا أقوياء لأنهم عاشوا دينهم وطبقوه فما كانوا يفرقون بين النظرية والتطبيق ولا كانوا يفرقون بين العقيدة والأخلاق ولذلك لم يعرفوا أزمة خلق ولا ضمير لأنهم فهموا الدين على أنه خلق إن فهم الدين على أنه خلق هو المنطلق الأول للإسلام كعقيدة واقعية وكشريعة رحيمة ويكفى فى هذا الصدد قول رسول الله ﷺ حينما سئل ما الدين ؟ فأجاب : حسن الخلق، من هنا نعى لماذا اعتبرت الأخلاق دعامة أساسية فى بناء الشخصية الإسلامية السوية المستقلة المتميزة للوصول بها إلى الإنسان المتكامل المنتج على مدى الأجيال ، وما ذكر القرآن الكريم للأخلاق فى مواطن كثيرة إلا أدلة واضحة لاعتبار الأخلاق أمرا أساسيا بعد أمر العقيدة .

وما كان الإيمان إلا قوة دافعة للخير وفعله ونشره وقوة عاصمة واقية لصاحب الإيمان رادعة له ومانعة عن التدنى والتردى لأن الإيمان قول وعمل وبرهان لا ادعاء الهداية[٣] .

---

(١) رواه الطبرانى الترغيب والترهيب ٢٠١/٣ .

(٢) الترغيب والترهيب ٣/٤ .

(٣) أنظر بين العقيدة والأخلاق محمد الأدريسى٧٤ العدد ١٢٤ - ١٩٨٨ .

فالمؤمن بالله حقا هو من يتحلى بصفات الكمال ويتنزه عن ذميم الأفعال فمن آمن بالله حقا امتنع عن كل منكر وأمسك عن الفواحش واجتنب الباطل فليس شيئ يصلح النفوس ويروضها على أمهات الفضائل ويجملها بمكارم الأخلاق كالإيمان بالله تعالى .

فالإيمان بالله تعالى هو الذى يربى النفس على مراقبة الله تعالى فى كل حال فلا يسمح الإنسان لنفسه بالاعتداء على الآخرين أو انتهاك حرماتهم مهما كانت الأحوال لأن الإيمان يحث على العطف والمواساة فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على أعراضهم وأموالهم وأنفسهم فالسلوك يقوم على الفضائل والقيم الإيمانية فالخلق والسلوك يأتى دائما متفرعا عن الإيمان والاعتقاد اللذان هما الأساس لكل شيئ .

فلا تتحقق الأخلاق إن لم يكن هناك اعتقاد يرتكز عليه وهذا يفسر لنا سر ربط الإسلام بين العقيدة وبين الأخلاق فإن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون الإنسان المؤمن ذا خلق محمود لأن الأخلاق السيئة دليل على ضعف الإيمان أو عدمه كما سبق أن ذكرنا.

وقد وضح صاحب الخلق العظيم أن الإيمان القوى يلد الخلق القوى حتما وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه مما يؤدى إلى فعل الشر وإيذاء الناس "والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه!!!!" [١] .

وقد سمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلا يثنى على رجل فقال "أسافرت معه قال : لا ، قال : أخالطته فى المبايعة والمعاملة قال : لا، قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال : لا ، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ولا أراك تعرفه" .

إننا نرى أصالة الرابطة بين العقيدة والأخلاق ونلمسها وهى تلمع عن نفسها أيضا فى ذلك القول الحكيم الشهير الذى دل بحق على العلاقة الوثيقة بين العقيدة والأخلاق فى الإسلام **(الدين المعاملة)** ولكى نزداد اطمئنانا فى هذا الصدد ونرسخ فى الأذهان حقيقة العلاقة بين العقيدة والأخلاق نورد هذا الحديث القصير الجامع البليغ يرشد فيه الرسول الكريم ﷺ سفيان بن عبد الله الأنصارى إلى أن الاستقامة

---

(١) البخارى ك الآداب ب آثم من لم يأمن جاره بوائقه .

نتيجة للإيمان قال أى سفيان : "قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ثم استقم" [٢] .

لقد كان المسلمون منذ عهد الصحابة خير أمة أخرجت للناس لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وهذا الإيمان بصدق ومن الأعماق هو الذى جعل لهم وأصل فيهم حسا وإلزاما ووازعا أخلاقيا أنه ثالوث إيجابى واق ولا زال وسيبقى عاملا أساسيا وحيدا لصيانة الفطرة وللحفاظ على القيم الخلقية ، وما كان المسلمون أمة وسطا وما جعلهم الله شهداء على الناس إلا لكونهم أصحاب مبادئ ورسالات فى الحياة انطلاقا من وسيطتهم التى ترتكز وتعتمد على أصالة الفطرة وصحة العقيدة وسلامة الأخلاق فبهذا الثالوث الربانى تتجلى عظمة وقيمة وأهمية الوسطية الإسلامية لخير المسلم ولصالح الغير وبهذه الوسطية اهتدى المسلمون وسعدوا وسادوا وهدوا غيرهم بما يتصفون به من صلاح وإخلاص وبما يتحلون به من مكارم الأخلاق ودعوة للحق فكانت لهم العزة والسيادة [٣] .

فالإيمان الصحيح جزء لا يتجزأ من العقيدة الأصيلة ، والعبادة صمام آمنه والأخلاق ثمرته ودليل صحته ، فعن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم خلقا" [٣] .

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حيث يشربها وهو مؤمن" [٤] .

عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" [٥] .

---

(٢) رواه الإمام مسلم .

(٣) بين العقدية والأخلاق محمد الأدريسى بخات الهداية العدد ١٢٤ ، ١٩٨٨ ص ٧٤، ٧٧ .

(٣) رواه الترمذى ك الرضاعة ب ما جاء فى حق المرأة على زوجها حسن صحيح .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه ك الإيمان ب نقصان الإيمان .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه ك الإيمان ، البخارى ك الإيمان ب أمور الإيمان .

وقال رسول الله ﷺ "الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الأخر" [١] ، ومن ثم كانت القيم الأخلاقية عليها المعول الكبير فى حفظ حقوق القرآن .

فالأمة التى لا عقيدة عندها تختل فيها موازين الأخلاق وتكون أمة مضطربة فى حكمها على الأشياء وما نراه اليوم هو أكبر شاهد فما كان رذيلة بالأمس أصبح فضيلة اليوم سوف تكون فضيلة اليوم هى رذيلة الغد إن العقل يستطيع أن يميز الحسن من القبيح ولكنه ليس فى وسعه أن يحقق الالتزام لما وصل إليه على وجه الدوام ولا يصدر ذلك إلا عن عقيدة كما أن ارتباط الأخلاق بالعقيدة يعطيها الدقة والشمول ، فليست الأخلاق فى الإسلام محدودة بحدود المكان ولا بحدود الزمان وليست أخلاق المنفعة ولا أخلاق العرف المتغير إنما الأخلاق فى الإسلام عبادة وغاية وخشية لله فالمسلم يتحلى بالفضائل طمعا فى الله وحبا فى ذاته ومن ثم استمدت الأخلاق سلطانها على النفس وحققت لها الخلود والدوام [٢] .

ارتباط الأخلاق بالعبادات

وإن العبادات التى شرعت فى الإسلام على اختلاف أنواعها وهى التى تصل الإنسان بالله تعالى وتجعله فى ارتفاع وصعود وتبلغه العزة والتمجيد لا يرجى ثوابها ولا تثمر ثمرتها إلا إذ حققت الهدف التى شرعت من أجله وهو تهذيب النفوس والتحلى بمكارم الأخلاق ، فالعبادات التى ألزم الإسلام بها كل منتسب إليها هى تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت الظروف أمامه أنها أشبه بالتمارين الرياضية التى يقبل الإنسان عليها بشغف ملتمسا من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة .

الصلاة :

والقرآن والسنة المطهرة يكشفان عن هذه الحقائق بكل وضوح فالصلاة أهم عبادة فى الإسلام وأول ما يحاسب عليها الإنسان وهى عماد الدين هذه الصلاة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها فقال تعالى **(أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلوة**

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك .

(٢) سورة الأعراف والأهداف التى ترمى إليها د. السيد محمد على النمر ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) [١] .

وظيفتها :

فهذه الصلاة لا تؤدى وظيفتها ولا تحقق هدفها ولا يتقبلها الله إلا إذ أثمرت خلقا كريما، يقول الله تعالى فى حديثه القدسى "إنما اتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل على خلقى ولم يبت مصرا على معصيتى وقطع نهاره فى ذكرى ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب ذلك نوره كنوز الشمس أكلوه بعزتى واستحفظه بملائكتى أجعل له فى الظلمة نورا وفى الجهالة حلما ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة" [٢] هكذا يتقبل الله الصلاة ممن أثمرت فيه تواضعا ورحمة وخلقا طيبا أما ذلك الشخص الذى لم يستفد من صلاته خلقا كريما فلا صلاة له .

قال رسول الله ﷺ "ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له" [٣] .

الزكاة :

والزكاة المفروضة على المسلم ليست ضريبة تؤخذ من الأغنياء لا معنى لها وإنما الغاية والهدف منها أولا غرس الرأفة والرحمة والحنان وتوطيد علاقات التعاون والألفة بين شتى الطبقات وقد نص القرآن على الغاية من اخراج الزكاة بقوله **(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)** [٤] فهى تطهر النفس الإنسانية من الشح والأنانية وتدفع بصاحبها إلى البر والتعاون والرأفة والرحمة .

فتنظيف النفس من أدران النقص والتسامى بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى ، ومن أجل ذلك وسع النبى ﷺ فى دلالة كلمة الصدقة التى ينبغى أن يبذلها المسلم فقال "تبسمك فى وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة وإماطتك الأذى والشوك والعظم

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ١٣ .

(٣) أخلاقنا أ.د. محمد ربيع ٤٢ .

(٤) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

عن الطريق لك صدقة وأفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة وبصرك للرجل الردئ البصر لك صدقة" [١] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "كل سلام من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع الشمس تعدل بين الاثنين صدقة وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة" [٢] متق عليه .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ "كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك يوجه طلق وأن تفرغ من دلوك فى أناء أخيك" [٣] .

ففي الصلاة يقول تعالى **(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)** [٤] ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا .

الصيام :

والغاية والهدف من الصوف هو التحلى بمكارم الأخلاق وذلك عن طريق مجاهدة النفس الإنسانية للغرائز وحرمانها من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة وانتصارا على نوازع الشر فى نفس الإنسان فلا ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائما من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة [٥] .

وإقرارا لهذا المعنى قال الرسول الكريم ﷺ "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه" [٦] ، فإذا لم يتحقق هذا الهدف الخلقى فلا ثمره له والقرآن الكريم يذكر ثمرة

---

(١) الترمذى ب ما جاء فى صنائع المعروف ٣/٢٢٨ - ٢٢٩ الحديث ٢٠٢٢ ط دار الفكر .

(٢) أخرجه البخارى ك الصلح ب الصلح بين الناس .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المقرو ١/ ٤٠٤ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٥) خلق المسلم ص ٨ .

(٦) البخارى ك الأدب ب قوله تعالى واجتنبوا قول الزور ٩٩ ط ١٩٩٨ ار الكتب العلمية .

الصوم بقوله **(كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)** [١] .

وفى الصوم يقول الله تعالى [٢] تتقون بطر المعيشة فتشعرون بألم الجائعين والفقراء والمحتاجين فتمدون إليهم يد العون والمساعدة تتقون شهوة النفس فتحجزونها عن شهواتها وملذاتها امتثالا لأمر الله تعالى ويقول الرسول الكريم "إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحدا أو قاتله فليقل أنى صائم" متفق عليه .

ويقول ﷺ "الصيام جنة إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل أنى صائم أنى صائم" [٣] .

الحج :

كذلك الحج الهدف منه تهذيب المسلم على حسن الخلق وليس مجموعة من المناسك يؤديها الإنسان مجردة من المعانى الخلقية ومثلا لما قد تحتويه الأديان أحيانا من تعبدات غيبية وهذا خطأ إذ يقول الله تعالى فى الحديث عن هذه الشعيرة **(الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب)** [٤] .

وقال رسول الله ﷺ "من حج فلم يرفث (بابتعاده عن الجنس) ولم يفسق (بابتعاده عن الشجار) رجع كيوم ولدته أمه" متفق عليه .

وهكذا يتبين لنا أن الهدف والغاية من العبادات فى الإسلام هو تهذيب النفوس والتحلى بمكارم الأخلاق فإذا لم تثمر هذه العبادات هذه الثمرة ولم تحقق الهدف من فرضها تصبح لا فائدة ترجى منها وهذا ما أكد عليه الرسول الكريم ﷺ فى أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ "أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيام بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(٣) أبو داود ك الصوم ب الغيبة للصائم ٢/٧٦٧ رقم ٢٣٦٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار"[١].

وعن أبى هريرة ﷺ قال : يا رسول الله ﷺ "إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها قال هى فى النار" قيل يا رسول الله ، قيل يا رسول الله "إن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها ، قال هى فى الجنة" [٢].

ولا غرو أن جعل الإسلام درجة الأخلاق تبلغ درجة الصائم طول دهره القائم طول ليلة فيقول ﷺ "إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم" [٣].

إن العبادات التى شرعها الله تعالى لنا وتعبدنا بها على اختلافها الغرض الأول منها تحقيق هذه المعانى السامية والأخلاق الفاضلة .

ارتباط الأخلاق بالمعاملات :

إن المجتمع الإيمانى لا تقوم المعاملة بين أفراده على المؤاخذة والمحاسبة والانتصار للذات وإنما تقوم المعاملة بين الأفراد على المسامحة والتغاضى والصفح والصبر يقول تعالى **(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)** [٤].

وقد بين لنا رسول الله ﷺ كل ما تكون به معاملاتنا طيبة فقال "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به" ، فمن اهتدى بهديه ﷺ واقتدى بسنته لم ير الناس منه إلا قولا معروفا وذوقا فى المعاملة ولطفا وذلك هو ثمرة الإيمان بالله وأداء العبادات والوقوف عند حدود الله .

فأى فائدة للناس من صلاة وصيام وزكاة إذا لم يسلم المسلمون من لسان صاحبه ويده ، فالمسلم حقا من كان حسن المعاملة بشكل مطلق مع الناس جميعا يبغى بذلك رضاء الله تعالى وحسن مثوبته

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الترغيب والترهيب ٣/٣٥٦ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ٢/٤٧ ط الحلبى ط أولى ١٣٧ - ١٩٥٢ .

(٤) سورة فصلت الآية ٣٤ .

فالمسلم يجعل من نفسه ميزانا فيما بينه وبين الناس فيعامل الناس بما يجب أن يعامل به .

سيدنا على يوصى ولده الحسين فيقول له "اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك فأحب للناس ما تحب لنفسك وأكره لهم ما تكرهه لها ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك وأرضى من الناس ما ترضاه لهم منك" ، أرأيت إلى هذا الجمال الأخاذ فى حسن معاملة الناس وأداء الحقوق إلى أصحابها .

هكذا يتجلى لنا عظم الإسلام وفوائده وتظهر هذه الثمار فى معاملة المسلم للناس ومن هنا اشتهر من الأقوال الفاضلة "الدين المعاملة" فالعلاقة فى الإسلام بين المسلم وغيره من بنى الإنسان مسلما أو غير مسلم يقوم على أسس أخلاقية من العدل والتسامح والإحسان والرحمة فالإسلام ليس كلمة تتردد على الألسنة وإنما الإسلام عقيدة وعمل خلق وسلوك .

فمن حسن الخلق الرفق فى المعاملة والبذل والعطف وكف الأذى والبشاشة ولين الجانب والرحمة والآخاء والإحسان فى المعاملة بين الناس ، بل عندما يقع الاعتداء ويصاب المسلم بالبغى وهنا يأتى التوجيه القرآنى ليدفع النفس الإنسانية إلى أرفع مستوى فيقرر أن للذى أصابه البغى أن ينتصر لنفسه ويرد عنها البغى والعدوان ولكنه لم يدع الإنسان لعاطفة التشفى والانتقام بل أخذ بيده برفق إلى مرتقى الصبر والغفران والتسامح فقال تعالى **(والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله)** [١].

وهكذا بين لنا أن الدين وما اشتمل عليه من عقيدة وعبادات ومعاملات ترتبط ارتباطا وثيقا بمكارم الأخلاق وفضائل السلوك فما بعث الله الرسل ولا أنزل الكتب إلا لتهذيب النفوس ، **(هو الذى بعث فى الأميين رسول منهم)** [٢] الذين يتبعون الرسول النبى [٣].

فالإسلام أمر بمكارم الأخلاق ونهى عن رذائل السلوك من اتهام الناس دون دليل أو تتبع عورات الناس أو التخاصم والتباغض والحسد ، فقال ﷺ "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا

---

(١) سورة الشورى الآيات ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة الجمعة آية ٢ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

ولا تحسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم التقوى هاهنا التقوى هاهنا ويشير إلى صدره" [١] ، ففى هذا الحديث الشريف يضع ﷺ الأساس السليم للتعامل فى الإسلام إذ ينهى عن أربعة أشياء ويدعوا إلى الأخوة الإسلامية ثم يبين ما يستلزم هذه الأخوة هذه الصفات ويحدد الأشياء التى لا يحل الاعتداء عليها لمسلم وما يحب أن يعنى به المسلم لأن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه فى كل صغيرة وكبيرة فى سره وعلانيته لا يخفى عليه شيئ فى الأرض ولا فى السماء .

فينهى النبى ﷺ عن الظن وهو التهمة دون دليل ولا شك أن الظن هنا الظن السئ دون مسوغ ولا دليل ثم إصدار الأحكام بناء على هذا الظن والتجسس والمقصود به البحث عن عورات الناس والتجسس أعلاها لأن الغاية منه هى الإطلاع على أسرار الناس .

أما الحسد فهو تمني زوال نعمة الغير ، وهذا ينافى خلق المؤمنين لأنه نقص فى الإيمان يجب أن ينزه عنه لأن المسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه فالإسلام ينهي عن التطلع إلى ما فى يد غيرنا وتمنيه فقال تعالى **(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض)** [٢].

التدابر ومعناه التعادى وإعراض الإنسان عن أخيه وهجره له والمقصود هنا بالنهى وتجنب أسبابه ودواعيه .

---

(١) أخرجه البخارى ٧٨ كتاب الأدب .

(٢) سورة النساء الآية ٣٢ .

الأخلاق وضمانات حماية حقوق الإنسان فى الإسلام

تقديـــم

لقد اعتنت الرسالات السماوية بحقوق الإنسان عناية فائقة ومن هذه الرسالات ، رسالة الإسلام ومنهجه الواضح البين الذى أولى الإنسان عناية كبيرة ونال الإنسان فى ظل منهجه درجة من التكريم لم يحظ بها أى كائن من الكائنات ولم تعرف البشرية على امتداد تاريخها الطويل شريعة من الشرائع المادية أولت الإنسان حظه من التكريم ورفعت من قدره كما صنعت المنهج الإسلامى [١] .

فالشريعة الإسلامية عدل كلها ومصالح ورحمة كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل .

فالشريعة الإسلامية عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله فى أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ وكل خير فى الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها وكل نقص فى الوجود فسببه من أعرض عنها [٢] .

ومن ثم فقد وضع الإسلام من الشرائع ما يكفل الحياة الآمنة للمجتمع ويحفظ للفرد حقوقه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويصون المجتمع مما يؤدى إلى إشاعة الاضطراب وزعزعة الثقة بين الناس وبث الخوف والرعب والاعتداء على الآخرين .

ومن هنا فإن أحكام الشريعة الإسلامية تدور حول حماية الضروريات الخمس التى هى أمهات لكل الأحكام الفرعية هى حفظ الدين والنفس والمال والعقل وحفظ النسل بهدف المحافظة على مصالح الناس الحقيقية ، فكل ما يؤدى للمحافظة على هذه الضروريات يعتبر مصلحة تستحق الحماية وكل اعتداء على إحدى هذه الضروريات يعتبر جريمة ، فالجريمة كل فعل أو ترك فيه اعتداء على الدين بالردة أو على النفس بالقتل أو القذف أو على العقل

---

(١) أنظر منهج الإسلام فى إصلاح الفرد والمجتمع د. مجدى عبد الغفار ٤١٣ رسالة دكتوراه .

(٢) أنظر أعلام الموقعين لابن القيم الجوزيه ٣/٥ .

بالشرب أو على النسل والعرض بالزنى أو القذف أو على المال بالسرقة أو الغصب [١] .

تشريعه الحدود على الجرائم الأخلاقية :

فما أكثر الجهود التى يبذلها المصلحون فى كل حين يعقدون المؤتمرات والندوات ويشرف عليها كبار رجال الأمن ووزراء الداخلية للبحث عن الوسائل والنظم التى تقضى على انتهاك حقوق الإنسان وعلى الجرائم ، وتحارب الرذائل وتقاوم الفساد من أجل تحقق الأمن والطمأنينة للشعوب ، ورغم كل هذه المجهودات الضخمة فالفساد يزداد انتشارا فى كل عام وجرائم ما يسمى انتهاك حقوق الإنسان .. القتل والتشريد والرعب تسيطر عليه ، وظلمات القلق والاضطراب تخيم سحبها وتزداد كثافة وسوادا وإلى غير ذلك من الشرور فى جميع مجالات الحياة التى تؤدى إلى تحطيم المجتمعات وتهز كيانها وتهدم حضارتها .

لذلك جاء الإسلام بالتشريعات الجنائية التى تطهر المجتمع من الجرائم والشرور وتحمى النفوس والأعراض والأموال من العبث بها والتعدى عليها ، فشرع الإسلام بعض العقوبات الدنيوية لتكون سيفا مسلطا على رءوس ضعاف العقيدة الذين لا ترهبهم مسئولية الجزاء الأخروى ، ولا يهمهم إلا التنافس والتكالب على الحياة الدنيا حتى لو أدى ذلك إلى ارتكاب الشرور وإهدار حقوق الآخرين .

وتقوم نظرة الإسلام فى ذلك على أن المسلمين بشر تتحكم فيهم الرغبات والشهوات ولابد من أن يوجد بينهم من يضعف لديه الوازع الدينى ولا يستجيب للترهيب الأخروى .. فكان من مقتضيات الحكمة والسلامة ومقاومة النفوس الفاجرة التى تتحكم فيها تلك الرغبات والشهوات وذلك عن طريق وضع عقوبات دنيوية لكبح جماح تلك النفوس من جهة ، وصيانة المجتمع الإسلامى من شيوع الفساد والفوضى من جهة أخرى .

والأفعال التى وضع لها الإسلام عقوبات دنيوية هى الأفعال التى يترتب على إتيانها أو تركها ضررا بنظام المجتمع الإسلامى ، أو عقيدته ، أو بحياة أفراده ، أو بأموالهم ، أو بأعراضهم ، أو

---

(١) أنظر النظم والثقافة الإسلامية ١٤٧ .

بمشاعرهم ، أو بغير ذلك من شتى الاعتبارات التى تستوجب بقاء المجتمع قويا متضامنا متخلقا بالأخلاق الفاضلة [١] .

هذه العقوبات تنقسم بحسب جسامة الفعل المستوجب للعقوبة وهى الحدود والقصاص والتعزير والدية [٢] ، وقسم الماوردى الجرائم التى هى محظورات شرعية إلى نوعين :

إحدهما : ما كان من حق الله تعالى .

الثانى : ما كان من حق الآدميين .

أما المختصة بحقوق الله فضربان :

إحدهما : ما وجب فى ترك مفروض مثل ترك الصلاة .

الثانى : ما وجب ارتكابه مفروض محظور .

فأما ما وجب فى تركه مفروض مثل ترك الصلاة المفروضة، وأما ما وجب ارتكاب المحظورات فضربان :

إحدهما : ما كان من حق الله تعالى وهى أربعة حقوق (حد الزنا ، حد الخمر ، حد السرقة ، حد المحاربة) .

الثانى : من حق الآدميين اثنان : (حد القذف بالزنا ، القذف فى الجنايات) [٣] .

وحماية لهذه الحقوق فقد جاء فى الشرع عقوبات رادعة على المعتدى على النفوس والأعراض والأموال .

الأخلاق وضمانات حماية حقوق الإنسان فى الشريعة الإسلامية:

لا شك أن الأخلاق هى الدعامة الأولى والركيزة الأساسية لحفظ كيان الفرد والمجتمع ولهذا نرى أنه قد اتفقت كلمة الباحثين والفلاسفة والمفكرين والمصلحين على ضرورتها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع فى جملته ، لذلك كانت حقوق الإنسان جزءا لا يتجزأ من تعاليم الإسلام التى " لا تقف عند حد تنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقه ولكنها تتعدى ذلك إلى وضع نظام محدد للسلوك الاجتماعى الذى يجب على المسلم إتباعه كأثر من آثار تلك العلاقة ونتيجة لها ..

---

(١) أنظر التشريع الجنائى فى الإسلام د. عبد القادر عودة ٦٨ ، أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام أ.د. عبد الواحد الفار ٤٦١ .

(٢) أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام د. عبد الواحد الفار .

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردى ٢٢١ط الحلبى ط٣ القاهرة ١٩٧٣

وهذا النظام يقوم على مجموعة من الأوامر والأحكام العملية التى يوجب الإسلام تطبيقها فى المجتمع الإسلامى ، وهى تستهدف فى مجموعها إلى تحقيق ثلاث غايات [١] .

الأولى : إصلاح الفرد نفسيا وخلقيا وتوجيهه نحو الخير والفضيلة والواجب ومكارم الأخلاق كى لا تطغى شهواته ومطامعه على عقله وواجباته .

الثانية : إصلاح الأسرة وذلك بإحاطتها بكل الحقوق والضمانات التى تجعلها أسرة هانئة فى مجتمع سليم راشد .

الثالثة : إصلاح المجتمع وذلك عن طريق إقامة العلاقات بين أفراده على أسس تحفظ له الأمن والسلام وبصورة يسود فيها العدل والمساواة والتكافل الاجتماعى لخير الفرد والمجتمع .

وهذه الأهداف الثلاثة تقوم على معايير ثابتة لمفاهيم حقوق الإنسان وواجباته فى الإسلام وهى معايير لا تتغير بتغير الأوقات والظروف .. بل هى دائمة وتحفظ بصحتها وأصالتها فى كل الأحوال والأزمنة لأنها شريعة الله المحكمة المضبوطة التى تنسق مجال الحياة البشرية بأكملها وهذا هو الفرق بين الشريعة الإسلامية فى مجال تنظيم حقوق وواجبات الفرد والجماعة وبين القوانين الوضعية التى تنظم هذه الحقوق والواجبات [٢] .

وذلك لأن الشريعة الإسلامية تعتمد فى هذا التشريع على الوحى الإلهى فى مصدريه الأساسيين .

العقوبات الخلقية لانتهاك حقوق الإنسان :

وحماية لحقوق الإنسان فى الإسلام فقد "هيأت تشريعات الإسلام الجو المناسب للحياة الأخلاقية الفاضلة بما شمله الإسلام من نظام اقتصادى كامل ونظام سياسى محكم ونظام اجتماعى دقيق وبما تضمنه من حث متكرر على الالتزام بمكارم الأخلاق وحمايتها وتحذير من ذميم الأخلاق وتنفير منها وبما حواه من بيان لما يترتب

---

(١) أنظر الشرع بوجه عام والشريعة الإسلامية وحقوق الأسرة فيها الأستاذ مصطفى الزرقا ، بحث ضمن كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ٢٤٢ نقلا عن كتاب قانون حقوق الإنسان د. عبد الواحد الفاسه ٤٥ .

(٢) أنظر قانون حقوق الإنسان فى الفكر الوضعى والشريعة الإسلامية د. عبد الواحد الفار ٤٦٠ دار النهضة العربية ١٩٩١ .

على الأخلاق فى الدنيا والآخرة بالنسبة للفرد والمجتمع من نتائج وآثار [١] .

فقد انتهى علماء الأخلاق إلى ما عنيت به الشرائع فى مسألة الخير والشر وجزاء من يجبن إلى هذا ، ومن يهتدى إلى ذلك ، وأخذوا يعددون مساوئ الشر وآثاره الوبيلة فى حياة المجتمع الإنسانى ثم راحوا يبثون ذلك فى نفوس الناس ويمثلون به أفكارهم حتى ثبت واستقر وعاد الرأى المزكى الذى لا يختلف فيه اثنان وبذلك صار الحائد إلى الشر مخالفا للنظام الخلقى المقرر خارجا على المجتمع الإنسانى فى صورته المثلى فتحق عليه العقوبة الخلقية ، فكل من تجاوز الأخلاق الفاضلة يعتقد أنه خارج على النظام المقرر للمجتمع الإنسانى فهو يستر هذه المجاوزة جهد إمكانه ثم هو يبالغ فى نفيها عن نفسه إذا رمى بها ، والحق أن العقوبة الخلقية أكثر العقوبات أثرا فى قتل الشر فى نفس من يهم به إذ أن الإنسان مدنى بالطبع كما هو مقرر ، ولا يسعه أن يعيش وحده بل لابد له أن يشارك الناس وأن يشاركوه فى أسباب العيش وتكاليف الحياة وهذه المشاركة تتطلب منه أن يكون من الخلق على حال ترضى بها نفوسهم وتوافق ما استقر فى أفكارهم ، فالعقوبة الخلقية لمن يخالف تلك الحال جانحا إلى الشر هى نفى المجتمع الإنسانى وسلخه من طبعه المدنى [٢] .

والحماية لحقوق الإنسان فى الإسلام فقد شرع الإسلام بعض العقوبات لمن يحيد عن طريق الأخلاق الفاضلة حماية للإنسان ، فمحافظا على العدل وصيانة له شرع الإسلام القصاص فى جريمة القتل .

أولا : حقوق الإنسان فى الأمن فى حياته

وذلك لأن الإسلام يقوم على احترام النفس الإنسانية وتكريمها فإن الشريعة الإسلامية أكدت على كرامة الإنسان وحفظ حياته فحرم الله قتل النفس بغير حق وأنزل أشد العقوبة بما تكسب ذلك ، فالحياة الإنسانية الكاملة مضمونة فى الإسلام لا يجوز التعرض لها بالقتل أو بالجرح أو بأى شكل من أشكال الاعتداء ، سواء كان الاعتداء على

---

(١) أخلاقنا أ.د. محمد ربيع جوهرى ٨١ .

(٢) الخلق الكامل ٣١٥/٤ .

بدنه أو على نفسه أو مشاعره أو ازدراءه أو تخويفه أو الانتقاص من قيمته الإنسانية [١] .

وذلك من خلال ما سنته الشريعة الإسلامية من الأحكام والعقوبات كضمانات تكفل عدم الاعتداء على حياة الإنسان حتى يستطيع أن يمارس نشاطه بحرية تامة بدون إعاقة أو ضرر [٢] .

فحرم الإسلام قتل الإنسان ووضع له عقوبة القصاص فى حالة القتل ، وذلك لأن المجتمع الإنسانى لا تستقيم له حياة ولا يستقر له حياة ولا يستقر له حال ولا يهنأ له عيش إلا إذا كانت حياة الناس أساسها العدل ، فالعدل يحقق الاطمئنان والسكينة والأمن والآمان والتوازن والانسجام بين أفراد المجتمع .

ولحماية أمن الإنسان على حياته شرع القصاص فقال الله تعالى ، وقال تعالى **(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة يا أول الألباب لعلكم تتقون)** [٣] ، ففى القصاص حياة عظيمة وبقاء للنفس فإن القاتل إذا علم أنه سيقتل ارتدع وانزجر فأحيا نفسه من جهة وأحيا من كان يود قتله من جهة أخرى [٤] .

ومن ثم فقد حمى الله النفس وجعل عقوبة قتل النفس بغير حق عقب جريمة السحر والشرك فقال ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات" ، بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك حينما يشرع العقوبة المالية على من قتل نفسا خطأ قال تعالى **(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من**

---

(١) أنظر حقوق الإنسان وحرياته الأساسية فى النظام الإسلامى والنظم المعاصرة د.عبد الوهاب الشتاتى ٧٣٤ط عمان ١٩٩٨ .

(٢) المرجع السابق ٧٣٥ ، وأنظر حقوق الإنسان وحرياته الإسلامية فى القانون الدولى والشريعة الإسلامية د. جابر إبراهيم الروای ٢٦٤ .

(٣) سورة البقرة الآيات ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٤) أخلاقنا أ.د. محمد ربيع جوهرى ٨٧ .

الله وكان الله عليما حكيما ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) [١] .

وهكذا نرى أن عقوبة القاتل أفظع عقوبة ، خلود فى جهنم ، غضب من الله ولعنة ، وعذاب عظيم ، وتأمل قول رسول الله ﷺ "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق" [٢] .

ومن دواعى فخر الشريعة الإسلامية وأنها تمتاز عن الشوائع الأخرى حين ساوت قيمة الإنسان الفرد الواحد بقيمة البشرية كلها فقال تعالى **(من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)** [٣] .

وهذه القصاص عام بدون استثناء يطبق على الجميع ، وإذا كان الله تعالى قد حرم قتل النفس فإنه حرم الانتحار وهو قتل الإنسان نفسه فقال تعالى **(ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)** [٤] .

كذلك حرم الله تعالى الاعتداء على جسد الإنسان بالضرب أو غيره فقال تعالى **(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)** [٥] ، وجاء عن النبى ﷺ أنه قال "من جلد ظهر مسلم بغير حق لقى الله وهو عليه غضبان" .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز تروى لنا كتب التاريخ أحاديث ممتعة عن توفير "الماهية" للعجزة والمسنين وعن توظيف قائد براتب خاص لكل أعمى فى البلاد يقوم على شئونه ويقوده فى رواحه ومجيئه ويخدمه فى خاصة أمره وعامته هذه الأمور إن دلت على شيئ فإنها تدل بصراحة على احترام الإسلام لإنسانية الإنسان وضمانه لحياة الفرد ضمانا لا يقوم على رسم الخطوط والنداء بالمبادئ فقط بل يقوم على العمل الفعلى فى هذا المضمار والمقاومة المادية لكل ما يعترض سبيل هذا الضمان من عقبات وعوائق [٦] .

---

(١) سورة النساء الآيات ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) سنن بن ماجه ك الديات ب التغليظ من قبل مسلم ظلما ٨٤٧/٢ رقم ٢٦١٨ .

(٣) سورة المائدة الآية ٣٢ .

(٤) سورة النساء الآية ٢٩ .

(٥) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٦) أنظر الإسلام نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى ٤٩ .

القصاص وأثره فى حياة الفرد والمجتمع

لا ريب أن التشريع الإسلامى فى "تنفيذه للقصاص تشريع عدل إذ أن تنفيذ القصاص فيه إصلاح للفرد والمجتمع إذا تمت هذه العقوبة على وجهها الصحيح فإنما تحفظ الحياة للفرد وتشيع الطمأنينة والأمن فى المجتمع فحين يقدم القاتل على جريمته ويضع فى اعتباره ما سيؤول إليه أمره بعد ذلك وأنه سيقتص منه فستمتنع يده من الاعتداء على أحد وسيفكر ألف مرة قبل أن يقدم على تنفيذ جريمته ويكفه عن هذا التفكير عن تلوث يده بدماء الغير وحين يعلم أيضا أولياء القتيل أن المصير الذى ينتظر القاتل هو القصاص فستهدأ ثورتهم فلا يجنحون إلى الأخذ بالثأر وسفك الدماء ونشر الذعر بين المجتمع [١] ، وهذا ما قد أثبته علماء النفس الحديث "فكل دافع نفسى يدعو إلى الجريمة يواجه من عقوبة القصاص دافعا نفسيا مضادا يصرف عن الجريمة وذلك ما يتفق تمام الاتفاق مع علم النفس الحديث" [٢] .

إن عدم تنفيذ القصاص حتما يؤدى إلى نشر الفوضى والفساد فى المجتمع ويتزايد عدد القتلى فى المجتمع يوما بعد يوم .

ثانيا : المحافظة على الأعراض والنسل والأنساب

وحماية لخلق العفة والحياء ومحافظة على الأعراض والنسل والأنساب وشرع الإسلام عقوبة الزنا ونهى عن الاقتراب منها لأن فيها انتهاك لحقوق الأسرة فقال تعالى **(ولا تقربوا الزنى إنى كان فاحشة وساء سبيلا)** [٣] ، وذلك لأن الزنا جريمة الجرائم اللأخلاقية وقمة الانحلال والانحراف وعنوان الفساد والفجور وهو سبب لأغلب جرائم القتل ولانتشار الأمراض الخطيرة التى تفتك بالأبدان وتنقل بالوراثة إلى الأولاد وهو قتل للنفس لكونه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ويتبع ذلك الرغبة فى التخلص من الجنين قبل أن يتخلق أو بعده أو بعد مولده فإذا ترك للحياة بغير قتل ترك لحياة التشرد والشو أو لحياة المهانة والضياع والجريمة ، هو أيضا فيه إضاعة الأنساب وضعف للثقة فى العرض والولد بين الزوجين فينحل المجتمع وتتفكك روابطه [٤] .

---

(١) أنظر التشريع الجنائى فى الإسلام للأستاذ عبد القادر عوده ص ٦٦٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٢ .

(٤) أنظر تلك حدود الله .

ومن ثم فقد أحاط المنهج الإسلامى علاقة الرجل بالمرأة من حيث النواحى الجنسية بقيود تحفظ المرأة من الانحطاط وتحمى الأعراض من الإسفاف وتصون الأنساب من الضياع [١] .

ولذلك كانت عقوبته فى الشريعة أقسى العقوبات حتى تكون رادعة زاجرة وكافية أو مخففة من انتشار هذه الآفة الاجتماعية الخطيرة فالزانى يقتل رجما بالحجارة إن كان محصنا ، ويجلد مائة جلدة إن كان بكرا ، وقتلة ليس عاديا وإنما يرجم كما ترجم الكلاب المسعورة وجلده ليس عاديا وإنما يجلد أمام طائفة من المؤمنين وعلى مرأى من الناس ومسمع منهم قال تعالى **(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)** [٢] وقال تعالى **(والذين لا يدعون مع الله إلها أخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما)** [٣] .

وذلك حماية للعلاقة الزوجية من أى خيانة أو إهانة تصدر عن أى من الزوجين وجعل عقوبة الموت رجما بالحجارة لكل زوج تثبت عليه خيانة صريحة أو اتصال جنسى غير مشروع بشهادة أربعة شهداء فكما أن الأمة (المجتمع الكبير) تدافع عن كيانها بإعدام من يخونها وينقل أسرارها أو يهين رئيسها أو حاكمها كذلك الأسرة ذلك (المجتمع الصغير) الذى هو نواة المجتمع والأمة وأساس له قد دافع الله عنها بهذا التشريع العادل العظيم [٤] الذى يحفظ حقوق الأسرة من التشتت والضياع وتحفظ حقوق المرأة من الابتذال وترفع مكانتها من أن يجعلها الفساق أو مرضى القلوب مضغة فى أفواههم فيحطمون مكانتها فى قلب زوجها وأولادها باتهامات باطلة .

إن الإسلام لا يقيم بناءه على العقوبات وإنما على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة وعلى تهذيب النفوس وتطهير الضمائر وعلى مراقبة الله والخشية من سخطه واجتناب المعاصى بمجرد النهى عنها والتحذير منها فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

---

(١) أنظر منهج الإسلام فى إصلاح الفرد والمجتمع د. مجدى عبد الغفار ص ٣١٤ .

(٢) سورة النور الآية ٢ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٤) أصول التربية الإسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٧٣ط دار الفكر .

فالمؤمن بالله حقا يتجنب هذه الفاحشة استجابة لقول الله تعالى **(ولا تقربوا الزنى أنه كان فاحشة وساء سبيلا)** [١] بل الإنسان يكفيه التهديد بالعقوبة والتلويح بالرواجم .

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) ، فهذه النصوص تحرم الزنا وتحدد عقوبة مرتكب هذه الجريمة بالجلد والتعذيب والرجم وهذه العقوبات التى نصت عليها الشريعة الإسلامية باعتبار إتيان هذا الفعل دليل على خسة النفس وسيطرة الشهوة واعتداء على أعراض الغير .

فقوله تعالى **(ولا تقربوا الزنى أنه كان فاحشة وساء سبيلا)**، ويقصد الله فى ذلك أن كلمة لا تقربوا ، فهى أمر وتحذير لمن يقربها بمباشرة أسبابه ودواعيه لأنه رذيلة واضحة القبح وبئس طريقا طريقه.

وقال تعالى **(والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما)** [٢] ، يقصد الله أن المؤمنين الذين شأنهم الإخلاص فى التوحيد ونبذوا كل أثر للشرك فى عبادة ربهم وتنزهوا عن القتل للنفوس التى نهى الله عن قتلها إلا بالحق وقد تجنبوا الزنا وقصروا أنفسهم على الحلال من أوجه المتاع لينجوا من عقاب هذه المهلكات فإن من يفعل هذه الأمور يلقى منها شرا وعذابا فأنه سيلقى يوم القيامة عذابا مضاعفا ويخلد فيها ذليلا مهانا ولكن من تاب من هذه الذنوب وصدق فى إيمانه واتبع ذلك بالطاعات والأعمال الصالحة فهؤلاء يغفر لهم رحمة منه ويجعل السيئات السالفة حسنات يثيبهم عليها أجزل الثواب وأن الله من شأنه الرحمة والغفران [٣] .

وقال النبى ﷺ حين سئل : أى الذنب أعظم ؟ قال "أن تجعل لله ندا وهو خلقك" وقال ثم أى ؟ قال "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك" قال ثم أى ؟ قال "أن تزانى حليلة جارك" .

قال رسول الله ﷺ "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" [٤] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٢ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٣) أنظر الكبائر للإمام الذهبى ٣٢ .

(٤) أخرجه مسلم ك الإيمان باب نقصان الإيمان .

عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال "الزنا يورث الفقر" [١]، وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان" [٢] .

روى عن سليمان بن بريده عن أبيه قال جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله طهرنى فقال ويحك !! ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرنى فقال رسول الله ﷺ ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرنى فقال النبى ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له الرسول ﷺ فيم أطهرك ؟ فقال من الزنى .

فسأل رسول الله ﷺ أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس به جنون فقال: اشرب خمرا ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر قال : فقال رسول ﷺ أزنيت ؟ فقال نعم فأمر به فرجم .

فكان الناس فيه فرقتين : قائل يقول لقد هلك لقد أحاطت به خطيئته ، وقائل يقول ما توبة أفضل من توبة ماعز إنه جاء إلى النبى ﷺ فوضع يده فى يده ثم قال اقتلنى بالحجارة .

قال فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال استغفروا لماعز بن مالك قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك قال : فقال رسول الله ﷺ لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم [٣] .

روى أنه بعدما رجم ماعز سمع رسول الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظروا إلى هذا الذى ستر الله عنه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ، فسكت عنهما الرسول ﷺ ساعة فمر بجيفة حمار شائل برجلية فقال : "أين فلان وفلان؟" .

فقالا نحن يا رسول الله فقال لهما " كلا من جيفة هذا الحمار" فقالا يا رسول الله غفر الله لك ، من يأكل من هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ: "ما نلتما من عرض هذا آنفا أشد من الجيفة فوالذى نفسى بيده أنه الآن فى أنهار الجنة" [٤] .

---

(١) رواه البقهى .

(٢) أبو داود والترمذى .

(٣) رواه مسلم ك الحدود ب من اعترف على نفسه بالزنى ١٣٢١/٣ .

(٤) رواه أبو داود والنسائى .

وروى أن الغامدية حينما أخذ الناس فى رجمها أصاب شيئ من دمها خالد بن الوليد فسبها ولعنها وسمعه رسول الله ﷺ فقال "مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو قسمت بين أهل المدينة لوسعتهم" [١] .

وروى مسلم عن عمران بن الحصين : أن امرأة من جهينة أتت نبى الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت : يا نبى الله أصبت حدا فأقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : "أحسن إليها فإذا وضعت فأتنى بها" فلما أتاه بها أمر رسول الله ﷺ فشكت ثيابها وأمر فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : أتصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ قال : "لقد تابت توبة لو قسمت بين أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟" .

ويعلق الأستاذ الدكتور محمد ربيع جوهرى [٢] على مثل هذه الروايات بقوله : أرأيت هذه النفوس !! أسمعت هذه الدروس !! ، إن الإسلام ليس مولعا بإقامة الحدود ولا متعطشا إلى إراقة الدماء ، كلا.. إن الرسول ﷺ يطلب من مرتكب الجريمة أربع مرات أن يراجع نفسه فالستر أولى من الفضيحة ، فلعل هناك شبهة تدرأ الحد عنه وليس هذا فحسب بل لقد وضع التشريع الإسلامى من الشروط والضوابط ما جعل إثبات هذه الجريمة متعذرا وليس هناك من طريق إلا الإقرار والإصرار عليه .

لكن المذنب يأتى بنفسه راضيا صابرا لينفذ فيه حكم الله ، ولا يحاول الهروب من عقاب الدنيا فلعل هذا العقاب يجبر كسره ولعل الله يقبل توبته .

نعم لقد تاب (ماعز) توبة : (لو قسمت بين أمة لوسعتهم) !! ، وتابت (الغامدية) توبة : (لو قسمت بين أهل المدينة لوسعتهم) !! .

وإقامة الحد بهذه الصورة فيه صيانة لحياء المجتمع ، وحفاظا لعفته وحماية لنقائه وطهارته فلن يجرأ أحد أن يرتكب هذه الجريمة ،

---

(١) رواه مسلم ٣٥ .

(٢) أنظر صحيح الإمام مسلم فى كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنى ١٣٢١/٣ ، وكلمة (ويحك) كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع فى هلكه لا يستحقها، ومعنى (استنهكه) أى شم رائحة فمه ، ومعنى (كفلها رجل من الأنصار) أى قام بالانفاق عليها .

لأنه رأى لو سمع عن عقاب فاعلها [١] : **(فليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)** [٢] .

وجاء النص على تحريم اللواط قال تعالى **(أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون)** [٣] ، فجعل عقوبة اللواط مثل عقوبة الزنا ، بل رجح بعض العلماء القول بوجوب قتل الفاعل لهذه الجريمة والمفعول به استنادا إلى حديث رسول الله ﷺ " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط اقتلوا الفاعل والمفعول به" [٤] .

يقول ابن حجر "أجمعت الأمة على أن من فعل فعل قوم لوط من اللوطية المجرمين الفاسقين الملعونين فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين ، وعليهم أعظم الخزى والبوار والعقاب فى الدنيا والآخرة ما داموا على هذه القبائح الشنيعة البشعة الفظيعة الموجبة للفقر وهلاك الأموال ومحق البركات والخيانة فى المعاملات والأمانات" .

حكمة عقوبة الزنا

وهنا قد يتساءل البعض ويقول : إذا كانت عقوبة الزنا يتعذر إثباتها بالبينة وكذا الحبل ووجود المقر به نادر وقليل فما فائدة التشريع برجم الزانى إذا كان محصنا وبجلده إذا كان بكرا على جريمته متعذرة الإثبات ومستحيلة التطبيق ؟

والجواب على هذا الاعتراض نقول :

أولا : أن الله تعالى اقتضت حكمته ورحمته بخلقه أن يحيط إثبات هذه الجريمة بضمانات قوية لا يتطرق إليها الشك ولا ترفع نحوها الريبة حتى لا يكون فيها مجال للكيد والدس والأحقاد والتآمر والانتقام من الأبرياء بخاصة إذ علمنا أن القتل مشروع فى حد الزنا ، ويا ليته قتل عادى لا تشهير فيه ولا فضيحة بل أنه كقتل الحيوانات الضارية والكلاب المسعورة .

فلو كان إثبات هذه الجريمة هينا ويسيرا ولم يحط الشرع الحكيم بهذه الضمانات لكان ذلك فوضى فى التشريع وتعطشا لسفك

---

(١) راجع أخلاقنا أ.د محمد ربيع جوهرى ٨٤ /٨٥ .

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٤) رواه أبو داود فى سننه ك الحدود ب فيمن عمل قوم لوط ٦٠٧/٤ رقم ٤٤٦١ .

الدماء وإشاعة للفاحشة والتشنيع والفضائح ، ولكان سهلا على أى حاقد غادر أن يغرى ثلاثة من الشهود يشهدون معه على شخص برئ بالزنا ويتخلص منه بدلا من إقدامه على قتله وتعريض نفسه للقصاص والإعدام .

من أجل ذلك وضع الشرع الحكيم شروطا وضمانات تجعل إثبات جريمة الزنا بالبينة شبيها بالمستحيل .

ثانيا : إن العقوبة الدنيوية إذ سقطت فإن عقوبة الآخرة أشد نكالا إذا مات قبل التوبة النصوح [١] .

القذف : وجاء النص على جريمة القذف والعقاب عليها ثمانون جلدة بعد شهادة أربعة شهود يقول القرآن فى شأن هذه العقوبة **(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم)** [٢] ، فهذه الآية تدل على تحريم قذف المحصنات لما فيه من إهدار لكرامة الإنسان وسمعته ، وقذف الرجال داخل فى حكم الآية بالمعنى ، وإجماع الأمة على ذلك فليس القذف خاصا بالنساء فقط أو أن المراد: والذين يرمون الأنفس المحصنات أى سواء كانت أنفس رجال ، أو أنفس نساء [٣] ، ويعاقب مرتكب هذه الجريمة بعقوبتين إحدهما الجلد والثانى الحرمان من حق الشهادة .

قال القرطبى "اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفا ورميا موجبا للحد فإن عرض ولم يصرح فقال مالك .. والدليل لما قال مالك : هو موضوع الحد فى القذف إنما هو لإزالة المعرة التى أوقعها القاذف بالمقذوف ، فإذا حصلت المعرة بالتعريض وجب أن يكون قذفا كالتصريح والمعول على الفهم .

وقد قال تعالى .. حكاية عن مريم **(يا أخت هارون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا)** [٤] فمدحوا أباها ، ونفوا عن أمها البغاء أى الزنى وعرضوا لمريم بذلك ولذلك قال تعالى

---

(١) أنظر تلك حدود الله ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة النورة الآيات ٤ ، ٥ .

(٣) تفسير القرطبى ص ٤٥٦٤ .

(٤) سورة مريم الآية ٢٨ .

(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) [١] وكفرهم معروف والبهتان العظيم هو التعريض لها أى ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا أى أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد [٢] .

ونتيجة هذه العقوبة الردع عن إفشاء الفاحشة بين الناس وتلويث سمعة الآخرين وتحقيق مجتمع نظيف يحسن أفراده الظن بالآخرين وتسود الثقة فيه ويشعر كل إنسان بالمسئولية نحو غيره وحماية هذا الغير مما يحمى نفسه منه وبذلك تنطلق المعاملات فى جو إنسانى نظيف .

فليتنبه شباب اليوم لما يدور على ألسنتهم من حديث خشية أن يقعوا فى هذه الجريمة البشعة والتى اعتبرها رسول الله ﷺ من الموبقات .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال "اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات" [٣] .

بهذه التشريعات تصان الأعراض ، ويكون المجتمع عفيفا حييا طاهرا نقيا .

ثالثا : المحافظة على العقل

جعل الإسلام حماية العقل من الضروريات الخمسة الواجب حمايتها فحرم الخمر وشرع عقوبة لمن يعتدى عليه بشربها ، قال تعالى **(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلواة فهل أنتم منتهون)** [٤] .

وكلمة (الخمر) معناها التغطية والستر فهى تشمل كل ما يخمر العقل أى يغطيه ويستره سواء كان سائلا أو جامدا وسواء كان مما يشرب أو مما يؤكل .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٦ .

(٢) أخلاقنا أ.د. محمد ربيع /٨٦ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الوصايا باب ٢٣ .

(٤) سورة المائدة الآيات ٩٠ ، ٩١ .

فهى تشمل الخمور المعروفة ، والنبيذ ، والحشيش والأفيون والبيرة فقد قال رسول الله ﷺ "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" [١] .

وعن ابن عمر ﷺ قال خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ فقال "أنه قد نزل تحريم الخمر وهى خمسة أشياء العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل والخمر ما خامر العقل" [٢] .

فذكر عمر ﷺ هذه الأنواع الخمسة المعروفة لسامعيه ثم ذكر ضابطا دقيقا وهو (الخمر : ما خامر العقل) .

وعقوبة جريمة الخمر الجلد أربعين جلدة وللحاكم أن يزيد إلى ثمانين جلدة إذا رأى ذلك حتى يرتدع الشاب وينزجر من تراوده نفسه فقد جلد على بن أبى طالب ﷺ الوليد بن عقبه أربعين ، ثم قال "جلد النبى ﷺ أربعين وجلد أبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة وهذا أحب إلى" [٣] .

وعن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله ﷺ "إذا شربوا الخمر فاجلدوهم ثم إن شربوا فاجلدوهم ثم إن شربوا فاجلدوهم ثم إن شربوا فاقتلوهم" [٤] .

ومن حكمة الإسلام أنه جعل حد الخمر ثمانين جلدة كحد القذف لأن شرب الخمر يؤدى إلى الإساءة للنفس والغير ويسيئ للمجتمع بقدر ما يسيئ القذف وإذ كان القذف يؤدى إلى إشاعة الفاحشة وعدم الثقة مما يضر بالمعاملات بين الناس فإن شرب الخمر يؤدى إلى الأضرار بالصحة وإضعاف الإنتاج وإهدار جوهر الإنسان الذى هو العقل المدبر للحياة الإنسانية ولذلك لم يكن غريبا أن تتجه الدول غير الإسلامية إلى تحريم الخمر حفاظا على المجتمع فالولايات

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الأشربة ب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام ١٥٥٨/٣ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأشربة ب ما جاء أن الخمر ما خامر العقل الفتح ٤٥/١٠ رقم ٥٥٨٨ .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الحدود ب حد الخمر ١٣٣٢/٣ رقم ١٧٠٧ .

(٤) رواه أبو داود فى كتاب الحدود ب إذا تتابع فى شرب الخمر ٦٢٣/٤ رقم ٤٤٨٢.

المتحدة الأمريكية أصدرت منذ عدة سنين قانونا يحرم الخمر تحريما تاما وقد أصدرت الهند كذلك قانونا مماثلا [١] .

رابعا : وحماية للأمن والاستقرار شرع الإسلام عقوبة الحرابة أو قطاع الطريق أو نهب وسرقة أموال الناس أو أعراضهم بالقوة عن طريق التعرض لهم وهم فى طريق سفر وإجبارهم على ذلك ، وتتحقق الحرابة بخروج جماعة من المسلمين أو من أهل الذمة لهم قوة ومنعة فى دار الإسلام إلى خارج العمران على قوم من المسلمين أو من أهل الذمة لسلب الأموال وسفك الدماء وهتك الأعراض والسعى فى الأرض بالفساد مجاهرة متحدية بذلك سلطة الحاكم متمردة على المجتمع [٢] .

فقد وضع القرآن عقوبة رادعة يحفظ للناس أمنهم ويحمى مصالحهم ويصون حقوقهم ويدفع الأذى عنهم فقضى على قطاع الطريق الذين يبعثون بالأمن ويجفون السبيل وينهبون أموال الناس بعقوبات رادعة تلائم جريمتهم المنكرة ، فشرع الإسلام عقوبة لقطع الطريق أو الحرابة .

فقد أنزل الله فى قطاع الطريق قوله تعالى **(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرى عذاب أليم)** [٣] .

فقد سمى القرآن الكريم هؤلاء محاربين لله تعالى ورسوله ولبيان أن قطاع الطريق كأنهم يحاربون الله ورسوله فالمسافرون فى أمان الله تعالى وحفظه والمتعرض لهم كأنه يحارب الله ورسوله وهو متعد على حقوق الجماعة وسلطة الحاكم أو الإمام وليس متعديا على شخص معين لذلك ضاعف الله تعالى عقوبة قطاع الطريق وجعلها القتل والصلب فى بعض الأحوال .

ويدخل فى مفهوم الحرابة العصابات المختلفة كعصابة القتل وعصابة خطف الأطفال وعصابة اللصوص للسطو على البيوت

---

(١) انظر التشريع الجنائى الإسلامى أ. عبد القادر عوده ٤٩٧/٢ ط دار التراث القاهرة ، نقلا عن حكمة الإسلام فى مكافحة الجريمة أ.د. عبد المعطى بيومى مجلة أصول الدين ١٩٥ .

(٢) أنظر تلك حدود الله ٢٥٨ ، أخلاقنا أ.د. محمد ربيع جوهرى ٨٨ .

(٣) سورة المائدة الآيات ٣٣ ، ٣٤ .

والبنوك وعصابة خطف البنات والعذارى للفجور بهن وعصابة اغتيال الحكام ابتغاء الفتنة واضطراب الأمن وعصابة إتلاف الزروع وقتل المواشى والدواب .

فقد بينت هذه الآية أحوالهم وعقوبتهم فى كل حال وكلمة (أو) فى الآية للتنويع والترتيب حسب جناياتهم عند الأئمة الثلاثة وهو قول بن عباس ﷺ وهى للتخيير عند الإمام مالك فالحاكم عنده مخير فى اختيار العقوبة المناسبة من هذه العقوبات المذكورة حسب اجتهاده إلا حالة القتل فالإمام عنده مخير فيها بين القتل والصلب فقط .

وكلمة الحرابة مأخوذة من الحرب لأن هذه الطائفة الخارجية على النظام تعتبر محاربة للجماعة من جانب ومحاربة للتعاليم الإسلامية التى جاءت لتحقيق أمن الجماعة وسلامتها بالحفاظ على حقوقها من جانب أخر .

فخروج الجماعة على هذا النحو يعتبر محاربة ومن ذلك أخذت كلمة الحرابة وكما يسمى هذا الخروج على الجماعة وعلى دينها حرابة فإنه يسمى أيضا قطع طريق لأن الناس ينقطعون بخروج هذه الجماعة عن الطريق فلا يمرون فيه خشية أن تسفك دماؤهم أو تسلب أموالهم أو تهتك أعراضهم أو يتعرضون لما لا قدرة لهم على مواجهته .

وقد اختلف العلماء فى نوع كلمة (أو) فى الآية السابقة فمنهم من قال إنها للتخيير فالحاكم عليه أن يتخير إحدى العقوبات المنصوص عليها فى الآية ، بصرف النظر عن الجريمة التى ارتكبها قطاع الطريق .

وأكثر العلماء يرى أن (أو) للتنويع لا للتخيير فالعقوبة تتنوع حسب الجريمة التى ارتكبوها :

١ - فإن قتلوا جميعا ولو كان القاتل واحدا منهم لأنهم شركاء فى الإفساد .

٢ - وإن قتلوا وأخذوا الأموال من الناس : قتلوا وصلبوا ومن العلماء من يرى أنهم يصلبون أولا وهم أحياء ثم يطعنون حتى الموت ومنهم من يرى أنهم يقتلون أولا ثم يسلبون ثلاثة أيام حتى يراهم الناس فيكون فى ذلك العظة والاعتبار لكل من تسول له نفسه الإفساد فى الأرض .

٣ - وإن أخذوا الأموال فقط ولم يقتلوا : قطعت أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ويكوى العضو المقطوع حتى لا يحدث نزيف لدمه.

٤ - وإن أخافوا الطريق فقط ، ولم يقتلوا ولم يأخذوا الأموال : نفوا إلى بلد أخر غير البلد الذى أفسدوا فيه ومن العلماء من يرى أن المقصود من النفى من الآية : السجن .

والواجب على المسلم شرعا أن لا يستسلم لهؤلاء المفسدين ولا يقف مكتوف الأيدى أمامهم بل يدافع عن نفسه وعرضه وماله بالتهديد والكلام ولا قصاص على القاتل المدافع عن نفسه ولا دية للمقتول الظالم المعتدى وليعلم المدافع عن نفسه وماله بالتهديد والكلام ولا قصاص على القاتل المدافع عن نفسه ولا دية للمقتول الظالم المعتدى وليعلم المدافع عن نفسه وماله وعرضه أنه إن قتل فهو شهيد.

عن أبى هريرة ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : فلا تعطه مالك قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : قاتله قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد قال : أرأيت إن قتلته : هو فى النار [1] .

وعن سعيد بن زيد عن النبى ﷺ قال "من قتل شهيد ومن قتل دون أهله أو دون دمه أو دينه فهو شهيد" .

خامسا : المحافظة على المال

وصونا للمال فقد حرم الله تعالى السرقة حفاظا على كيان المجتمع من الناحية المالية التى تتعلق بها حياة الناس فشرع الإسلام العقاب عليها فقال تعالى **(والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم)** [2] ، فجعل عقوبة السرقة بقطع اليد لأن هذه الجريمة فيها اعتداء على أموال الغير وهى عقوبة رادعة للسارق الذى يباغت الناس فيأخذ أموالهم .

وربما يبدو هذا العقاب شديد لأنه يشوه السارق مدى الحياة ولذلك يهاجم البعض هذا الحد ويصفه بالوحشة التى تتنافى مع روح العصر ومنجزات الحضارة .

ونجيب على ذلك بأن المال فى شرع الله حرمته كحرمة النفس فالمال من الضروريات الخمس الواجب حمايتها والدفاع عنها لأن المال فى الحقيقة جهد مبذول من دم الإنسان وأعصابه وفكره

---

(١) رواه مسلم ك الإيمان ب الدليل على أمر من قصد أخذ مال ١/١١٤ رقم ٣٢٥ .

(٢) سورة المائدة الآيات ٣٨ ، ٣٩ .

وجسمه فهو جزء من الحياة تحول إلى مال فعندما يقطع الإسلام جزءا من هذا البدن فى مقابل جزء من المال فهى عدالة حقيقية [١] .

فضلا عن أن السارق الذى يباغت الناس فيأخذ من أموالهم فى لحظة واحدة ما عسى أن يكون قد جمعوه بكدهم فى سنين وربما ترتب على سرقة هذا المال ضياع حياة بعض أفراد المسروقين وضياع كرامتهم كأن يكون هذا المال مدخرا لعلاج بعض الأفراد من مرض خطر أو يكون هذا المال للاستعانة به لتلبية بعض حاجات الإنسان الضرورية "وغير ذلك " ، على أن حد السرقة لا يطبق هكذا جزافا دون تحقيق شروط فى ثبوت السرقة من أهمها أن يكون المسروق مالا مقوما محرزا يبلغ نصابا وأن تراعى الشروط الطيبة فى التنفيذ حتى لا يسرى الفساد إلى سائر البلاد وإذا طالعنا أخبار السرقات والاختلاسات فى المجتمعات التى لا تطبق حد السرقة وقارنا بين ما يمكن أن ينشأ من قطع يد إنسان لم يحترم جهد غيره وماله واعتدى على مقومات المجتمع وكانت نتيجة هذا القطع زجر هذا السارق يعبث بأموال الناس لا يردعه قانون ولا يحد من شهوته سلطان كما حمى الله تعالى المال فحرم أكله بالباطل فقال تعالى **(ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)** [٢] .

سادسا : حفظ الدين

وجاء النص على تحريم الرده حفاظا على أخلاق المجتمع مما يترتب على ردة بعض الأفراد فقال تعالى **(ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)** [٣] وقال تعالى **(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)** [٤] فهاتان الآيتان تدلان على تحريم الردة والجزاء الخلود فى النار فى الآخرة .

---

(١) حكمة الإسلام فى مكافحة الجريمة د. عبد المعطى بيومى ١٩٦ حولية كلية أصول الدين .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

(٤) سورة النحل الآية ١٠٦ .

أما العقوبة الدنيوية فهى القتل فقد قال ﷺ "من بدل دينه فاقتلوه" [١] ، وقال ﷺ"لا يحل دم امرئ مسلم يشهد إن لا إله الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة .

وهذه العقوبة لا تتعارض مع الحرية الدينية التى قررها الإسلام وذلك لأن هناك فرق بين الخروج من الإسلام وغالبا ما يتم بشكل فردى والخروج على الإسلام وهو يحصل بصورة جماعية على الأغلب كالمرتدين من اليهود فى عهد الرسول ﷺ والمرتدين من العرب أيام أبى بكر .

هناك فرق بين تحريم الفعل وبين تجريمه أى وضع عقوبة له، إنها مسألة لا علاقة لها بحرية العقيدة المقررة فى الإسلام وإنها سياسية قصد بها حياطة المسلمين وحياطة تنظيمات الدولة الإسلامية وأسرارها من تزرع أعدائها المتربصين بها للنيل منها بادعاء الإسلام [٢] وقد أثار ورد قوله تعالى : القرآن لهذا المعنى **(وقالت طائفة من أهل الكتاب ءآمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا ءأخره لعلهم يرجعون)** [٣] .

هذه العقوبة التى شرعها الإسلام لحماية الأخلاق قد أعطى الإسلام لولى الأمر الحق فى سن بعض العقوبات الأخرى على المخالفات الأخلاقية فيما يسمى فى الفقه الإسلامى بالتعزيز .

ويستتاب المرتد قبل تنفيذ القتل لأنه "كثيرا ما تكون الردة نتيجة الشكوك والشبهات التى تساور النفس وتزاحم الإيمان ولابد أن تتهيأ فرصة للتخلص من هذه الشبهات والشكوك وأن تقدم الأدلة والبراهين التى تعيد الإيمان إلى القلب واليقين إلى النفس وتزيح ما علق بالوجدان من ريب وشكوك ومن ثم كان الواجب أن يستتاب المرتد ولو تكررت ردته ويمهل فترة زمنية يراجع فيها نفسه وتفند فيها وساوسه وتناقش فيها أفكاره فإن عدل عن موقفه بعد كشف شبهاته ورجع إلى الإسلام وأقر بالشهادتين واعترف بما كان ينكره وبرئ من كل دين يخالف دين الإسلام قبلت توبته وإلا قيم عليه الحد.

---

(١) البخارى ك استتابة المرتد ب حكم المرتد .

(٢) أخلاقنا ٩٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٧٢ ، أحكام المرتد رسالة جامعية للأستاذ نعمان السامراتى ، نقلا عن معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان ص ٦٢ ، ٦٣

وقد قدر بعض العلماء هذه الفترة بثلاثة أيام وترك بعضهم تقدير ذلك وإنما يكرر له التوجيه ويعاد معه النقاش حتى يغلب على الظن أنه لن يعود إلى الإسلام وحينئذ يقام عليه الحد .

والذين رأوا تقدير ذلك بالأيام الثلاثة اعتمدوا على ما روى "أن رجلا قدم إلى عمر ﷺ من الشام فقال هل من مغربة خبر ؟ (أى هل عنكم خبر من بلاد بعيدة) قال نعم رجل كفر بعد إسلامه فقال عمر فما فعلتم به ؟ قال قربناه فضربنا عنقه . قال : هلا حبستموه بين ثلاثا وأطعمتموه كل يوم رغيفا واستتبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله ؟ اللهم إني لم أحضر ولم أرض إذ بلغنى اللهم إنى أبرأ إليك من دمه" رواه الشافعى .

والذين ذهبوا إلى القول الثانى استندوا إلى ما رواه أبو داود : أن معاذا قدم اليمن على أبى موسى الأشعرى وقد وجد عنده رجلا موثوقا فقال ما هذا ؟ ، قال : رجل كان يهوديا فأسلم ثم رجع إلى دينه (دين اليهود) فتهود ، فقال لا أجلس حتى يقتل ذلك قضاء رسول الله ﷺ ، وتكرر ذلك ثلاث مرات فأمر به فقتل ، وكان أبو موسى قد استتابه قبل قدوم معاذ عشرين ليلة أو قريبا منها [١] .

وصيانة للحقوق أيا كانت أمر الإسلام أن تؤدى الشهادة بالحق ولو كان فيها ضرر على نفس الشاهد أو أقرب الناس إليه فقال تعالى **(يا أيها الذين ءآمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم)** [٢] .

وحث على العفو والتسامح فقال تعالى **(وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إن الله لا يحب الظالمين)** [٣]، وقال تعالى **(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة)** [٤] ، ونهى الإسلام عن سيئ الخلق والخصال التى تنفر الناس بعضهم من بعض فقال **(يا أيها الذين ءآمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين ءآمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض**

---

(١) فقه السنة ٤٥٧/٢ ، أنظر أخلاقنا أ.د. محمد ربيع جوهرى ٩٥ .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٣) سورة الشورى الآية ٤٠ .

(٤) سورة فصلت الآية ٣٤ .

الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقو الله إن الله تواب رحيم) [١] .

ومن أجل حفظ الأمن والسلام فى شتى بقاع الأرض ونشر العدالة بين الناس جعل الإسلام الإصلاح بوجه عام فريضته على المسلمين جميعا فقال تعالى **(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)** [٢] .

وبعد هذا العرض الموجز لحماية الأخلاق كما جاءت بها الشريعة الإسلامية صيانة لحقوق الإنسان فى الإسلام نرى الفرق هائلا بين تشريع السماء وقوانين البشر .

تفوق القوانين السماوية على القوانين الوضعية

مما سبق يتبين أن القوانين السماوية هى الكفيلة بحفظ حقوق الإنسان وصيانة كرامته بما اشتملت عليه من العقوبات الدنيوية الرادعة للنفس الإنسانية وإعطاء كل جريمة عقوبتها المناسبة لها دون إفراط أو تفريط .

وذلك لأن الجرائم لا تقع بنسبة واحدة وأن أكثر الجرائم وقوعا وتكرارا هى جرائم الحدود وجرائم القصاص أما معظم الجرائم وقوعا وتكرارا هى جرائم الحدود وجرائم القصاص أمام معظم الجرائم الأخرى فهى نادرة الوقوع وأقلها هو الذى يتكرر وقوعه ومع ذلك فهو لا يصل أبدا إلى الدرجة التى تتكرر بها جرائم الحدود والقصاص وقد ثبت ذلك فعلا عن طريق الإحصائيات على مستوى العالم كله ولو أخذنا دليلا من إحدى الدول العربية مثلا لوجدنا أن جرائم الحدود والقصاص قد بلغ فى متوسط عشرين سنة ما بين عامى ١٩٢٢م إلى ١٩٤٢ فى هذه الدولة ٧٢,٢% من مجموع الجنايات ١٣,٠٣% من مجموع جرائم الجنح وهكذا ثبتت لنا الإحصائيات ما قد يخفى على الناس من أن شريعة القرآن اهتمت بهذه الجرائم وذلك على قلة هذه الجرائم وذلك لتقضى على أكثر الجرائم تكرارا وأشدها هولا [٣] .

---

(١) سورة الحجرات الآيات ١١ ، ١٢ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٣) أنظر مع النظم والثقافة الإسلامية ٢٠٨ ، نخبة من أساتذة قسم الدعوة بكلية أصول الدين – القاهرة .

وإذا بحثنا عن حكمة الشريعة فى تشددها فى وضع هذه العقوبات بالذات لجرائم الحدود والقصاص والدية واهتمامها بها هذا الاهتمام تبين لنا حكمة الشارع الحكيم فعلا قصد الشريعة من الوصول للأغراض الثلاثة التى يقوم عليها بنيان المجتمعات وكيانها وهى :

١ - حفظ الأمن .

٢ - تثبيت النظام .

٣ - صيانة الأخلاق .

فالأمة إذا سلم أمنها ونظامها وأخلاقها فقد سلم لها كل شيئ لم يقف فى طريق تقدمها ورقيها شيئ ، فحكمة تخصيص هذه الجرائم بعقوبات محددة هى كونها أخطر الجرائم وأكثرها شيوعا .

وهذه العقوبات لا تتعارض مع الحرية الشخصية إذ أن الحياة ليست ملكا للإنسان كما يدعون وإنما هى ملك لمن خلقها وهو الله تعالى ، فالله سبحانه الذى وهب الحياة هو الذى شرع القصاص فى هذه الحياة حفظا للحياة وزجرا لصيانتها كما أن المجتمع مشارك الفرد فى حياته فلا عجب أن يضحى بالفرد فى سبيل الجماعة وإن كان هؤلاء قد أخذتهم الشفقة على المجرم بحجة أن القصاص اعتداء على الحرية الشخصية فلم لم يزجر نفسه عندما اعتدى على حرية غيره الا تقتضينا العدالة من جهة ، ومصلحة الجماعة من جهة أخرى أن يتمسك بشريعة القصاص وعقوبة الإعدام [1] .

فتشريعات الإسلام السالفة الذكر لا تتناقض مع الحرية الفردية ولا تتعارض مع الحرية الشخصية ، فكم ترتكب اليوم باسم الحرية من جرائم بشعة ومن مآس يندى لها جبين الإنسانية !! فالطعن فى عقائد الإسلام وتشريعاته .. حرية فكرية !

والنيل من رسوله وتجريح علمائه .. حرية رأى !

وترويج المبادئ المنحرفة والمذاهب الهدامة .. حرية نشر !

فهل الحرية هى التحرر من كل قيد والتحلل من كل سلطان !

إن كلمة (الحرية) بهذا اللفظ لم ترد فى القرآن الكريم ولم أجدها فى حديث رسول الله ﷺ وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية لتعطينا تحديدا وبيانا لمعنى هذا اللفظ فإننا نجد (الفيروز ابادى) يقول: "الحر بالضم : خلاف العبد وخيار كل شيئ والفرس العتيق ومن

---

(١) كتاب القصاص فى الإسلام د. أحمد الشرياص ١٠٠ . والمرجع السابق ٢٠٩ .

الطين والرمل : الطيب والحرية الفعل الحسن والحرة بالضم : الكريمة وضد الأمة ومن السحاب كثيرة المطر والحرية الأرض اللينة الرملية ومن العرب أشرافهم وتحرير الكتاب وغيره تقويمه .

ويذكر إذن صاحب (مختار الصحاح) من بين معانيها "تحرير الولد أن تفرده لطاعة الله وخدمة المسجد" .

فالحرية إذن تعنى الخير والطيب والحسن والكرم والشرف والتقويم وطاعة الله وخدمة المسجد .. وهكذا يجب أن تكون الحرية فى هذا الإطار فإن خرجت إلى غيره صارت تعنى الفوضى والإباحية والهدم والأنانية .

ويجب أن نشير هنا إلى أهمية وخطورة دور وسائل الإعلام من إذاعة مسموعة ومرئية وصحافة وسينما ومسرح .. الخ ، فإن هذه الأجهزة يجب أن تسخر لحماية الأخلاق ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة ويجب أن تكون الرقابة عليها نابعة من كتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ [1] .

والحدود فى الإسلام لابد أن تدخل ميدان التربية الإسلامية حتى تصبح جزءا أساسيا فى تكوين أفكار الناشئة وفى ضمائرهم وتنفعل بها وجدانهم وهذا كله يحقق معنى التقوى التى يطلبها الإسلام من كل فرد من أفراد المجتمع .. وهذا أعظم ركيزة فى المجتمع الإسلامى لأن المسلم يسير على النهج السليم الذى يقربه من معانى القوة والفضيلة عن الانحراف واقتراف الآثام التى تحدث الخلل فى المجتمع [2] .

والحدود فى الإسلام لا تقام إلا فى المجتمع الذى يعنى بالتربية الإسلامية وغرس الإيمان والعمل الصالح فى نفوس النلس ، والحدود وحدها لا تكفى لأن تنشئ مجتمعا آمنا سليما ولا تبعث فى النفس الهدوء والاطمئنان وإنما دورها فى المحافظة على أمنه واستقراره الذين قاما أصلا نتيجة لبنائه على أصول الإسلام ومبادئه وليس من المفيد أن يؤتى بالحدود لإقامتها فى مجتمع لا يسير على نظام الإسلام لا يعنى فيه بالتربية الإسلامية ولا يحقق فى النفس التقوى ولا يقوى الضمير ولا يربطه بالله تعالى إنه الخلل بعينه الخلل الذى يظهر الحدود الإسلامية بمظهر القوة على المنحرفين لأن

---

(١) أنظر أخلاقنا أ.د. محمد ربيع جوهرى ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) مجلة الوعى الإسلامى مقال لأستاذ على القاضى العدد ٢٣٠ صفر سنة ١٤٠٤ نوفمبر /ديسمبر ١٩٨٣ .

الانحراف بكل أنواعه منتشر فى المجتمع ومن هنا تزداد المخاوف وتظهر أثارها ولكن الحدود في الإسلام مفيدة إفادة هائلة فى إيقاف الانحراف وفى ضمان الأمن للفرد والمجتمع [١] .

ضرورة إحياء مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إن إقامة نظام الحياة الكريمة الطيبة الذى ينهض بنيانه على المعروف ولا يشوبه شيئ من المنكر لا يتحقق إلا بإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى ترتبط ارتباطا وثيقا بضمان حماية حقوق الإنسان فى الإسلام وذلك لأن هذه الفريضة تمثل المظهر الوقائى لحراسة المجتمع الإسلامى من بغى بعض أفراده على الآخرين أو اعتداء أحدهم على الأخر [٢] .

إن تلك الفريضة باعتبارها وسيلة من وسائل حراسة المجتمع، أمر أجمعت عليه الشرائع واتفقت على وجوبه الأديان وعليه قامت الدعوة ومن ينبوعه استقر فى النفوس البشرية غذاءها أو المتأخرين ومن ضوئه اقتبست نورانيتها ولا تجد أحد من العلماء المتقدمين أو المتأخرين لم يجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساسا للدين وفريضة عظيمة من فرائض الأمة الإسلامية [٣] .

يقول الإمام الغزالى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين وهو المهمة التى ابتعث بها النبيين أجمعين [٤] .

ويقول الضحاك "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين" [٥] وذلك لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو صمام أمان المجتمع .

دلائل وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة فى الشريعة الإسلامية فقد ورد لفظ المعروف فى القرآن ثمانية

---

(١) المصدر السابق .

(٢) أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام د. عبد الواحد الفار ٤٦٧ .

(٣) مع النظم والثقافة الإسلامية أ . رجب الشتيوى وأخرون .

(٤) الأحياء ١١٨٦/٧ .

(٥) فتح القدير ٢٦٣/٢ .

وثلاثين مرة ، وورد لفظ المنكر فيه ستة عشر مرة [١] والدليل على أن هذا المبدأ أصلا من الأصول التى يقوم عليها هذا الدين ما يلى :

أولا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جماع الدين كله لا جميع تعاليم وأحكام الدين إما أوامر وإما نواهى ، وقد علق القرآن خيرية الأمة محمد ﷺ على قيامها بهذا الواجب المقدس فقال تعالى **(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)** [٢] .

ثانيا : قصر الله تعالى الناجين من عذابه يوم القيامة على الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فى قوله تعالى **(والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)** [٣] وبهذا عدة الشريعة الإسلامية شريعة التواصى بالحق والتناهى عن المنكر .

ثالثا : أوجب الله تعالى على الأمة الإسلامية أن تنتخب من أبنائها طائفة تتفرغ للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال تعالى **(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)** [٤] .

رابعا : ثناء الله عز وجل على أمة محمد ﷺ لقيامها بهذا الواجب المقدس في قوله تعالى **(الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمر بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)** [٥] .

خامسا : قول النبى ﷺ "لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم" [٦] .

---

(١) علامات ضوئية على طريق الدعوة د. محمد جميل غازى ص ٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية .

(٣) سورة العصر .

(٤) سورة آل عمران الآية

(٥) سورة النور الآية .

(٦) أنظر النظم والثقافة الإسلامية أ.د. مصطفى صميدة ط أولى ١٩٩٠م ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

قوله تعالى **(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)** [١] .

روى عن النبى ﷺ أنه قال "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" .

وقال ﷺ "إياكم والجلوس على الطرقات ، قالوا : ما لنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقها ، قالوا : وما حق الطريق ؟ ، قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " [٢] .

ومن هذه الآيات والأحاديث النبوية المطهرة تبين لنا أن حماية الحقوق والحريات التى أقرها الإسلام لكل أفراد المجتمع ضد الظلم والعسف والاغتيال أو الانتقاص هو أمر واجب على جماعة المسلمين.

ثانيا : كما يتبين أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة على الأمة الإسلامية ألا تدع المسلمين ليهملوا هذه الفريضة المهمة، فشأن سنة الله تعالى أن تكون الحياة صراعا بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، ولا قيامة للباطل إلا فى غفلة أهل الحق عنه ، ومهما استشرى الباطل وعلت صولته فإن زيف دولة الباطل إلى زوال قال تعالى **(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)** [٣] .

ثالثا : ومن هذا المنطلق نستطيع القول أن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تعتبر وسيلة فذة من الوسائل التى جاء بها الإسلام لاستنهاض همم الأفراد لكى يبذل كل واحد منهم ما فى وسعه من جهد وما يتحمله من طاقة فى سبيل الدفاع عن حقوقه ورد ما قد يقع عليه من ظلم أو عدوان .

ومن هنا تكمن القيمة الحقيقية لهذه الفريضة باعتبارها وسيلة اجتماعية للدفاع عن الحقوق والواجبات التى أقرها الإسلام ، وهى فريضة من الواجب إحياءها في عصرنا الراهن لمواجهة كل الأفعال والتصرفات التى تتنافى مع الأخلاق والقيم والمبادئ والتعاليم

---

(١) سورة التوبة الآية .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ص ١٠٤ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٨ ، وأنظر النظم والثقافة الإسلامية نخبة من أساتذة قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالقاهرة ١٠٧ .

الإسلامية والتى باتت تلاحق الناس فى كل مكان فتنغص عليهم حياتهم وتضر بحقوقهم .. إن رد هذه المنكرات يعتبر فرضا عينيا واجب الأداء من جانب كل مسلم قادر عليه ومتمكن منه والتقصير فيه بما يؤدى إلى إهدار الحقوق التى كفلها الإسلام إنما هو نوع من الإثم الذى سوف يحاسب عليه المرء يوم القيامة [١] .

إن المنهج الذى جاء به الإسلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بهذه الشروط التى اشترطوها فى الأمر بالمعروف منهجا كاملا بحيث لو اتبعها المسلمون لأثمرت دعوتهم وأتت أكلها وكانت سببا من الأسباب الهامة فى صنع مجتمع خال من الشر والرذيلة متحليا بمكارم الأخلاق الفاضلة الكريمة متصفا بالصفات الراقية الحميدة ، متصفا بالصفات الحسنة التى تبنى سلوك الفرد والمجتمع كما أنه يجعل الفرد فى سلوكه اليومى نافرا من الصفات السيئة ساعيا إلى اكتساب الصفات الحسنة .

رابعا : قد جرى الفقهاء على تسمية "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" احتسابا .. والاحتساب يستعمل فى فعل ما يحتسب عند الله تعالى ما دام القائم به يفعله ابتغاء مرضاة الله وما عنده من ثواب .. ومن هنا جاء اصطلاح "الحسبة" (وهو اسم من الاحتساب) لدلالة على "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" .. كما جاء أيضا اصطلاح "المحتسب" وهو الذى يقوم بالاحتساب أى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ولكن من الشائع عند الفقهاء إطلاق اسم " المحتسب" على من يعينه ولى الأمر للقيام بالحسبة ، أما من يقوم بها دون تعيين من ولى الأمر فقد أطلقوا عليه اسم "المتطوع" وبدأوا يفرقون بين المحتسب والمتطوع .

مراتب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

قلنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمر واجب على المسلمين وذلك بتصريح الكتاب والسنة وهذا يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إحدى دعائم مقومات الأمة الفاضلة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، وربط ذلك بقيامها بهذا الواجب .

وقد ذكر الإمام محمد عبده أن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو عبارة شاملة كما يقول الإمام الغزالى ثلاث مراتب :

---

(١) أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام د. عبد الواحد الفار ٤٦٨ .

يترتب عليه أضرار لأفراد المجتمع أو الأضرار بالمصلحة العليا للجماعة الإسلامية .

غير أنه يمكن استخدام القوة لتغيير المنكر على نطاق محدود بمعرفة الأفراد فمن يتطلب وضعه أو وظيفته تخويله هذا الحق كرب الأسرة أو القائمين على شئون التربية والتهذيب أو من فى حكمهم فيجوز لأيهم استخدام القوة لمنع ارتكاب المنكر فى نطاق الحق أو الوظيفة الموكولة إلى كل منهم .

المرتبة الثانية :

وهى وأن كانت أقل من الأولى فى الدرجة ، إلا إنها قد تكون أكثرها فى التأثير ، وذلك لأن هذه المرتبة تتمثل فى حراسة المجتمع ووقايته من المفاسد عن طريق تكوين رأى عام من علماء الأمة وأدبائها ومثقفيها يمكنه أن يوجه ويرشد ويقوم المعوج ويهدى بالنصيحة ، يقول الرسول ﷺ "الدين النصيحة" قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال " لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم" .

وتغيير المنكر هنا له أيضا مراتب فقد يكون مجرد تعريفه لمرتكب المنكر بأن ما يرتكبه منكرا وهذه تكون فى عبارة رقيقة غير جارحة اقتداء بقوله تعالى **(فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)**[1].. وقد يصل الأمر إلى مرحلة الوعظ والنصح ويتم ذلك عن طريق الرفق واللين أيضا بقوله تعالى **(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)** [2] .

وقد يصل الأمر إلى مرحلة التعنيف والتقريع والتشديد كما قال تعالى على لسان لقمان **(وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وأصبر على ما أصابك أن ذلك من عزم الأمور)** [3] .. وكما جاء على لسان هود لقومه **(قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا أن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ، ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)**[4].

---

(١) سورة طه الآية ٤٤ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٣) سورة لقمان الآية ١٧ .

(٤) سورة هود الآيات ٥٠ : ٥٢ .

المرتبة الأولى :

دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير ليشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين فقال تعالى فى وصفهم **(الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتو الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)** [1] .

المرتبة الثانية :

دعوة المسلمين بعضهم بعضا إلى الخير ، وتأمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أوال الأمم وضرب الأمثال المؤثرة فى النفوس ويقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه وهم المشار إليهم بقوله تعالى **(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)** [2] .

المرتبة الثالثة :

تكوين بين آحاد الأمة بالتواصى على الحق والتناهى عن المنكر كل بما يعرفه فإذا رأى أحد المسلمين مسلما يتردى فى بوتقة هو يعلمها ولم لم يكن من الخاصة تصدى لنصحه وإرشاده وبيان ما أمره به الدين وما ينهاه عنه فى هذا المقام [3] .

فالمراحل الثلاثة التى يتعين سلوكها لتغيير المنكر هى :

المرتبة الأولى :

تغيير المنكر باليد أى تغييره فعلا حتى ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة واستخدام السلاح والاستعانة بالأعوان بما يؤدى إلى منع مرتكب المنكر من التمادى فى معصيته عن طريق دفعة باليد أو حبسه أو ضربه ، وبطبيعة الحال فهذه المرتبة تعتبر أفضل المراتب لأنها تعتمد على تغيير المنكر بالقوة وحيث أن استخدام القوة فى المجتمع الإسلامى المعاصر لا يتوفر لكل أفراد الأمة بل هى تتوفر للدولة بصفة خاصة ومن ثم فإن الدولة هى المطالبة بالتدخل لتطهير المجتمع ووقايته من أى خروج على أحكام الشريعة الإسلامية بما

---

(١) سورة الحج الآية ٤١ .

(٢) سورة التوبة الأية ١٢٢ .

(٣) تفسير المنار ج ٤ ص ٢٣ وما بعدها .

المرتبة الثالثة :

وهى الإنكار القلبى للمنكر فى حالة العجز عن إزالته بالطريقتين السابقتين وهذه المرتبة لا يجوز أن يخلو منها أى مسلم إلا إذا كان وازعه الدينى ضعيف فالإنكار القلبى هو أول رد فعل للمنكر فى المجتمع الإسلامى ، وكل مسلم مطالب بهذا الواجب باعتباره المرحلة الأولى لرد العدوان على شريعة الله وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ، وسوف تظل قيم الإسلام ومثله العليا بخير طالما ظلت جماعة المسلمين تستهجن المنكر وتعتزله [1] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

---

(١) أنظر حقوق الإنسان فى الإسلام ص ٥٥ ، ٥٦ .

المراجع

١ - المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة طبع دار الدعوة اسطنبول ، تركيا .

٢ - لسان العرب لابن منظور / دار المعارف بمصر / تحقيق عبد الله على الكبير وأخرون .

٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الحديث بالقاهرة ط أولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

٤- التشريع الجنائى الإسلامى أ. عبد القادر عوده دار التراث ، القاهرة .

٥- حقوق الإنسان مصدرياته الأساسية فى القانون الدولى والشريعة الإسلامية أ.د/ جابر إبراهيم الروای ط أولى ط دار وائل ١٩٩٩.

٦- الأخلاق الإسلامية وأساسها - عبد الرحمن حسن الميدان ط دار القليم - دمشق .

٧- معجم المصطلحات الدينية ط بيروت دار الفكر اللبنانى ١٩٩٥ د. خليل أحمد خليل .

٨- أخلاقنا أ.د./ محمد ربيع جوهرى ط الثانية ١٤١٨هـ ١٩٩٧م دار الاعتصام .

٩- الإسلام نظام إسلامى د. مصطفى الرفاعى .

١٠- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ط صبيح .

١١- الدين والأخلاق د. محمد يوسف موسى ضمن الإسلام ومكارم الأخلاق ط دار الكتاب العربى .

١٢- من أخلاق النبى د/ أحمد الحوفى فى ط دار نهضة مصر .

١٣- فى الفلسفة والأخلاق د/ محمد يوسف موسى ١٩٦٨م دار الكتب الجامعية بالإسكندرية .

١٤- تأملات فى فلسفة الأخلاق د. منصور رجب ط الثالثة .

١٥- دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق لجنة من قسم العقيدة والفلسفة ط أولى ١٩٩٩ .

١٦- الحكمة النبوية لـ عفيف طبارة ط ١٩٨٦م دار العلم للملايين .

١٧- حقوق الإنسان فى الإسلام د/ عبد الواحد الفار .

١٨- نحو ثقافة إسلامية أصيلة ل عمر الأشقر ط ١٩٩٧ دار النفائس.

١٩- روح الدين الإسلامى لـ عفيف طبارة ط ١٩٩٣ دار العلم للملايين أحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

٢٠- من توجيهات الإسلام لـ محمد شلتوت ط ١٩٦٦ دار القلم .

٢١- أصول التربية الإسلامية أ.عبد الرحمن النحلاوى دار الفكر المعاصر لبنان .

٢٢- دراسات إسلامية د. محمد عبد الله دراز ط الثانية ١٩٧٤ .

٢٣- الإسلام فى نظام إنسانى د. مصطفى الرافعى منشورات دار مكتبة الحياة . مكارم الأخلاق للإمام الطبرانى تحقيق د. فاروق حمادة ط الثالثة الأخلاق عند الإمام الصادق محمد أمين زين العابدين ط دار الكتاب الإسلامى ١٩٧٦ الإسلام وبناء المجتمع د. أحمد محمد العسال ط دار القلم الكويت .

الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبد الرحمن الميدان ط ١٩٨٧ دار القلم . أعلام الموقعين للإمام بن القيم ط بيروت ١٩٧٣ .

الإسلام وحقوق الإنسان د. محمد عمارة .

أصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان ، مكتبة المنار الإسلامية بغداد ١٩٨١م الأخلاق الإسلامية والإنسانية أ.على معبد ط الثانية ١٤٠٩- ١٩٨٨ دار الطباعة المحمدية الفقه الإسلامى فى نوبة الجديد د. مصطفى الزرقاء ط دمشق ١٩٦١ .

فهرس الموضوعات للمجلد الثانى

م	عنوان البحث	رقم الصفحة
١	الإنصاف فيما قاله العلماء حول علم المناسبات من خلاف .	١١٥٥
٢	السحر وهاروت وماروت دراسة قرآنية .	١١٩٩
٣	التقديم والتأخير فى القرآن الكريم أسبابه وأنواعه .	١٢٣٩
٤	إنسانية الإنسان فى القرآن الكريم .	١٢٦٥
٥	عقيدة الإباضية من كتبهم .	١٢٩٧
٦	التصوف عند الدكتور عبد الحليم محمود "الإطار النظرى والتجربة العملية" .	١٤٠٣
٧	قضية إنكار النبوة "عرض ومناقشة" .	١٥٢٧
٨	موقف العلماء من مخالفة الصحابى للحديث .	١٦١٥
٩	أحاديث صلاة التراويح دراسة موضوعية .	١٦٥٣
١٠	معرفة الصحابة رضى الله – تعالى عنهم أجمعين .	١٦٨٩
١١	توجيهات نبوية فى الأمثال الحديثة .	١٧٢٩
١٢	مدخل إلى الثقافة الإسلامية .	١٧٨٣
١٣	الإسلام والتواصل الحضارى .	١٨٢٥
١٤	الخلاف بين الدعاة مظاهره وأسبابه وعلاجه .	١٨٧٧
١٥	الأخلاق وحقوق الإنسان فى الإسلام .	١٩٢٧

رقم الإيداع ٦١٣٣
فى ٢٠٠٥/٣/٥